رودیجر شمیدت
کورد سبریکیلسن

Telegram:@mbooks90

NIETZSCHE
FÜR ANFÄNGER

فلسفة نيتشه للمبتدئين

هكذا تكلم زرادشت

ترجمة روضة حسام

اكتب

فَلسَفَة نِيتشَه لِلمُبتَدِئِين
هكذا تكلَّم زرادشت
مدخل للقراءة

روديجر شميدت وكورد سبريكيلسن

ترجمة/ روضة حسام

الطبعة الأولى، القاهرة 2024م

غلاف: محمد دربالة

تدقيق لغوي: محمود تركي

رقم الإيداع: 3796 / 2024

I.S.B.N: 978-977-488-878-6

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

اكتب

دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

"هكذا تكلّم زرادشت" هو أشهر أعمال فريدريك نيتشهFriedrich Wilhelm Nietzsche، وربّما أيضًا أصعب أعماله، لأنه يجمع فيه بين الفيلسوف ذو الفكر الشاعري، والشاعر ذو الفكر الفلسفي على حد سواء، بالإضافة إلى ذلك، هناك أيضًا مشكلة تاريخ النص الاستثنائي، والذي تربطه علاقة وثيقة بالتزوير والاستيلاء الأيديولوجي، ومع ذلك، لمن يشك في عبارات مثل "الإنسان الأعلى" أو "إرادة القوة" ويرغب أو حتى يحتاج إلى قراءة أعمال نيتشه المُقتبسة كاملة، فسيجد في هذا الكتاب رفيقًا مُفيدًا للغاية، فهذا الكتاب هو عرض للانطلاق في الطريق غير السهل تمامًا مع اثنين من القُرّاء ذوي الخبرة للتّعرُّف خطوة بخطوة على اللغة الخاصة بهذا الفيلسوف الراديكالي، لكي تغدو في النهاية قادرًا على التعامل مع النص كله بنفسك بكل سهولة ويُسر".

***

المقدمة

يحتل كتابي "هكذا تكلّم زرادشت" مكانة خاصة لديّ، ومنه أقدّم للبشريّة أعظم هدية مُنحت لها حتى الآن، وهذا الكتاب -الذي يتردد صداه عبر العصور- ليس فقط أرقى كتاب في العالم فحسب، بل هو أيضًا الكتاب الحقيقي، حيث يكمُن في باطنه الحقيقة الكاملة عن الإنسان، كما أنه الكتاب الأعمق، والذي تشكّل من ثروة الحقيقة الداخليّة للإنسان، وينبع منه ينبوع لا ينضب، حيث لا يهبط فيه أي غواص دون أن يعود مليئًا بالذهب والخيرات. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقديّة، المجلد السادس، ص ٢٥٩).

أصبح هذا الكتاب هو الأشهر لنيتشه؛ لأنه فُهم على أنه مُحاولة لكتابة كتاب مُقدّس جديد، وتم تبجيله وانتقاده في نفس الوقت، إنّ زرادشت هو أكثر كُتُب نيتشه إثارةً للجدل، فهذا الكتاب ليس مجرد أطروحة فلسفيّة بالمعنى التقليدي، وبالطبع ليس شعرًا، وما ميّزه أيضًا هو انشقاقه عن إطار كتابات نيتشه المُعتادة، فلم يصور نيتشه في أي من كُتُبه الأخرى شخصيّة مركزيّة مثلما صوّر زرادشت، وكذلك لم تكثر التلميحات الأسلوبيّة إلى الكتب الدينيّة في أي من كتبه الأخرى، مثلما كثرت في هذا الكتاب.

وأمّا عن نيتشه نفسه فيمكن العثور على اقتباسه عن زرادشت في كتابه "هذا هو الإنسان"، آخر كتاب أعده للنشر، والذي يعد تقديم ذاتي وقائي، "أخشى بشدة من أن يقدسونني، يومًا ما سأعرف الأسباب التي دفعتني إلى نشر هذا الكتاب مُسبقًا، إنه ليحول دون أن يتم أذيتي". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٦٥).

يُثير كتاب "هذا هو الإنسان" أيضًا الجدل، ولكن يتعلّق الأمر هنا بنيتشه نفسه: "لماذا أنا حكيم جدًا"، "لماذا أنا بهذه المهارة"، "لماذا أكتب كتبًا رائعةً للغاية"، "لماذا أنا مُميت"، فهذه هي بعض عناوين فصول كتاب "هذا هو الإنسان".

"لا أريد أن أكون قديسًا، بل أفضّل أن أكون مهرجًا ولعلني بالفعل أضحوكة.. وعلى الرغم من ذلك، أو بالأحرى ليس على الرغم من ذلك، لأنه لم يكُن هناك أي شيء أكثر كذبًا من القديس". (المرجع نفسه)

على الرغم من أنّ التذبذبات الموجودة في كتاب "هذا هو الإنسان" قد تُشير إلى انهيار نيتشه في توريندو، والذي يُمثل تمزقًا كارثيًا لعمله الفكري، إلا أنّ هذا التعليق السابق على الذات يعكس حيوية أفكاره، ويصوغ تقييماته الراديكالية، بالإضافة إلى شكوكه الذاتية.

ويُفسّر ذلك تحديدًا سبب أهمية القراءة لنيتشه.

الفصل الأول
حالة للقُرّاء

نيتشه «إنسان شفاف»:

لا نعرف عن أي كاتب فلسفي بقدر ما نعرفه عن فريدريك نيتشه، وأعماله، وأحلامه، وأمنياته، حيث يُمكننا تقديم تقارير تقريبًا عن كل يوم من أيام حياته، وإعادة بناء كل رحلاته، فنتعلم منها أيضًا أنّ الانتقال من فلورنسا إلى جنوة بالقطار في الثمانينيات كان أسرع ممّا هو عليه اليوم.

كان نيتشه نفسه عاملًا أساسيًا في معرفتنا له، فدائمًا ما احتفظ بدفتر ملاحظاته وأوراقه في الأماكن التي يتواجد بها؛ لكي يستخدمها لاحقًا، بالإضافة إلى ذلك، كانت شقيقته إليزابيث أحد أهم العوامل أيضًا في معرفتنا لنيتشه، والتي وُلِدت في عام ١٨٤٦ -أي بعد عامين من مولد شقيقها- فقد احتفظت بكل ملاحظاته، حتى عندما رغب نيتشه نفسه في حرق صندوق مليء بملاحظاته القديمة، قامت بمنعه عن فعل ذلك، وبعد انهيار نيتشه وفقدانه لعقله إثر المرض عام ١٨٨٩، نظّمت إليزابيث ممتلكاته، وإرثه الأدبي، وأسست أرشيف نيتشه في نومبورغ عام ١٨٩٤، ونظّمت كذلك البحث المنهجي عن مزيد من كتاباته، وخاصة رسائل الفيلسوف.

من البداية، شكّل اهتمام الناس بشخصية نيتشه جزءًا مهمًا من الأدب المكتوب عنه، بدأت البحوث حول سيرته الذاتيّة مُبكرًا، ولا تزال قائمة حتى اليوم وتستمر في البحث عن تفاصيل جديدة، في عام ١٨٩٤، نشرت لو أندرياس سالومي كتابًا بعنوان "فريدريك نيتشه في أعماله"، يُمكننا العثور في هذا الكتاب على أفضل وصف لشخصية نيتشه، وقراءة بعض الأشياء عن طريقة حديثه وحركاته، يلي ذلك في الأهمية ذكريات شقيقته وأصدقائه، نشرت أول مجموعة كبيرة من كتاباته وأوراقه في عام ١٨٩٤، وبدأت بذلك فصلًا جديدًا في التاريخ لم ينتهِ بعد.

- كما لو أنه قادم من بلد لا يسكنه أحد آخر.

(إرفين رود)

***

محطات في حياة نيتشه:

"لو لم يكُن التاريخ لا يزال ثيوديسيا(1) مسيحيًا، ولو تمت كتابته بمزيد من العدل والرحمة، لأصبح بالفعل أقل قدرة على خدمة ما يخدمه الآن، كمخدر لكل ما هو ثوري ومتجدد، الوضع مُشابه للغاية للفلسفة، حيث لا يرغب معظم الناس في تعلم أي شيء منها سوى فهم الأشياء بشكل تقريبي، ثم التكيُف معاها، وحتى أنبل ممثليها يسلطون الضوء بشدة على قوتها المهدئة والمواسية، حتى يعتقد المُدمنون على الكسل والراحة أنهم يسعون لنفس الشيء الذي تسعى إليه الفلسفة، ومن ناحية أخرى، يبدو لي أنّ السؤال الأكثر أهمية في جميع الفلسفات هو إلى أي مدى تتمتع الأشياء بطبيعة وشكل غير قابلين للتغيير؟ وبمجرد الإجابة على هذا السؤال، يُمكننا أن نبدأ بكل شجاعة في تحسين جانب العالم المعترف به على أنه قابل للتغيير. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الأول، ص ٤٤٥).

هذا ما كتبه أستاذ علم اللغات القديمة فريدريك نيتشه عام 1876، البالغ من العمر ٣١ عامًا حينذاك، وبالرغم من صغر سِنه إلا أنه كان شاغلًا لمنصب أستاذ جامعي في جامعة بازل منذ ثلاث سنوات ونصف، رغب نيتشه في تغيير ألمانيا المُتحجرة، التي ظنت بعد انتصارها العسكري على فرنسا، أنها انتصرت عليها ثقافيًا أيضًا، لكن الحياة الثقافية -حسبما اعتقد نيتشه- كانت مجرد ترفيه خالص، تعكس مجتمعًا غير مبالٍ تجاه القيم التي شكّلت اليونان القديمة، وبالرغم من ذلك، لم تكُن تلك اليونان بالنسبة لأستاذ اللغات القديمة هي اليونان الجميلة والبسيطة الموجودة في الكلاسيكيات الألمانية.

عمل نيتشه في لايبزيغ على خلق صورة جديدة لليونان، استعان بفلسفة شوبنهاور وأعمال فاغنر الكاملة كمرجع أساسي له، اكتشف نيتشه ما يُعرف بـ"التشاؤم اليوناني(2)"، فقد خلق اليونانيون فنهم العظيم بفضل معرفتهم لأعماق الحياة، فيمثل ديونيسوس الهاوية، ويمثل أبولو الفن، يذكر نيتشه في كتابه الأول "مولد التراجيديا من روح الموسيقى"، لا يمكن تبرير العالم إلا بكونه ظاهرة جمالية فقط. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الأول، ص٤٧).

سلب هذا الكتاب، والذي نُشر عام 1872، من نيتشه شعبته العلمية على الفور، فقد كانت أطروحاته حول الجوانب المُظلمة لليونان ثورية للغاية، وأصبحت نيته في بناء أساس تاريخي فلسفي لخطط ريتشارد فاغنر في بايرويت واضحة للغاية، وعندما تدخل فاغنر نفسه لحل الجدل حول كتاب نيتشه، ونشر مقالًا للدفاع عنه في جريدة "شمال ألمانيا العامة"، انتهت مشكلة نيتشه الجدية أخيرًا.

كتب نيتشه إلى صديقه إرفين رود: "علمت أنّ طالبًا [...] تم احتجازه في بون، فكتب إلى أقاربه بسعادة، أنه يشكر الله، لكونه ليس بالجامعة التي أُدرس بها، وعلاوة على ذلك، لم يحضر إلا عدد قليل جدًا من الطلاب في الفصل الدراسي الشتوي، هنا تكمُن الحقيقة التي تثقل كاهلي بعض الشيء، وهي أنه لا يوجد علماء فقه اللغة في جامعتنا سواي [...]، وهذه ظاهرة فريدة تمامًا [...]، وبصعوبة بالغة، تمكنت من تنظيم محاضرة، وبالرغم من ذلك لم يحضرها إلا شخصين فقط، أحدهما عالم لغة ألمانية والآخر محامي [...]، من الصعب جدًا بالنسبة لي تحمُّل مُعاناة الجامعة الصغيرة بسببي". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس عشر، ص ٤٤).

Telegram:@mbooks90

وبالرغم من ذلك لم توجه جامعة بازل أي كلمة انتقادية تجاه نيتشه.

كتبت كوسيما فاغنر في يومياتها في 9 يونيو 1872:

"تسلّمتُ رسالة من البروفيسور نيتشه، مُرسل معها كتيب أرسله إليه السيد هوجو فون فيلاموفيتس يتهمه فيه بالجهل، يُدرك ريتشارد أنّ الوضع الحالي للعالم قاتم للغاية، فالأساتذة أصبحوا أساتذة متخصصين مرة أخرى، لا تتنشر التعاليم الإنسانية، المحامي على سبيل المثال لا يُفكّر في دراسة فقه اللغة والفلسفة، كل شيء متخصص فقط". (المرجع نفسه، ص ٤٠)

اهتم نيتشه بوحدة الحياة والعمل والثقافة، بمشروع بايرويت، كذلك بناء دار عرض كبيرة حصرية لعروض أوبرا ريتشارد فاغنر، وإنشاء مكان -شبه صوفي- يتجدّد منه المجتمع، إنّ الإثارة التي أشعلها هذا المشروع في قلوب العديد من الشباب يمكن مُقارنتها بالحماس الذي أثاره حفل وودستوك في جيل كامل.

عندما وصل نيتشه إلى بايرويت لافتتاح المهرجان الأول عام 1876، لم يكُن

فاغنر قد قرأ كتابه „ريتشارد فاغنر في بايرويت". ولم يكُن لديه وقت للأستاذ نيتشه، وعندما لم يجد نيتشه في بايرويت ثوارًا ثقافيين، بل مال ونبلاء فقط، غادر بايرويت أثناء التجهيزات وهرب إلى كلينجنبرون، حيث تلقى رسالة من أخته إليزابيث في 8 أغسطس 1876: „استقبلني فاغنر أثناء الاستراحة وقال إنك ترغب فقط في المجيء، ويتمنى أن تنال أعماله الموسيقية إعجابك دائمًا! كان مضحكًا جدًا". (المرجع نفسه، ص ٦٩)

حسنًا من المُضحك حقًا التحدُث بهذه الطريقة إلى شخص كان مشروع بايرويت يمثل بالنسبة له وجهة نظر عالمية ذات يوم، والذي كتب مقالًا منهجيًا حول المهرجانات الأولية، مؤلفًا من اقتباسات -كما نعلم الآن من أعمال مازينو مونتيناري- من كتابات فاغنر الثورية والثقافية المُبكرة.

نعلم اليوم أنّ هروب نيتشه لم يكُن غير متوقع، فيُمكننا العثور على ملاحظات نقدية في دفاتره ضد عقائد شوبنهاور وفاغنر في وقت مبكر، في عام 1874، كتب نيتشه مقالًا صغيرًا بعنوان "عن الحقيقة والأكاذيب بالمعنى غير الأخلاقي"، لا يعني „غير الأخلاقي"، هنا حكمًا بل تحليلًا تاريخيًا للمفاهيم الأخلاقية، لكن نيتشه حينها لم يكُن ليخاطر بعد بنشر أفكاره النقدية، ظل „عن الحقيقة والأكاذيب بالمعنى غير الأخلاقي" نصًا سريًا لفترة، إنه يحتوي بالفعل على بعض من فلسفته النقدية اللاحقة، لم تكُن المقالات غير الملائمة التي نشرها خلال هذا الوقت، "شوبنهاور مربيًا" و"فاغنر في بايرويت"، سوى رسائل وداع لهم.

تدهورت حالة نيشته الصحية في النصف الثاني من سبعينيات القرن التاسع عشر، فقد عانى من الصداع الدائم ومشاكل مستمرة في العيون، مما دفعه لطلب إجازة في عام 1877، وقضى شتاء 1877/1878 في سورينتو بالقرب من نابولي مع صديقته مالفيدا فون مايسنبوغ، والتي كانت بمثابة أمًا بالنسبة له، وتلميذه السابق ألفريد برينر، وبول ري، مؤلف كتاب أصول المشاعر الأخلاقية، وجد نيتشه في ري شخصًا يُمكنه التفلسف والعمل معه براحة تامة.

نُشر كتاب „إنسان مفرط في إنسانيته.. كتاب للأرواح الحرة" في عام 1878، وخُصص لذكرى فولتير، ضدم أصدقاء نيتشه في بايرويت بشدة: كتاب مكرس لفولتير، الفرنسي المتنور؟ كتب نيتشه عن كتابه "إنسان مفرط في إنسانيته"، يطلق

عليه كتابًا للأرواح الحرة، كل جُملة منه تقريبًا تُعبر عن انتصار، وبه حررت نفسي من كل ما لا ينتمي إلى طبيعتي حتى في النظام الفلسفي، إنَّ التنوير الألماني الذي بُحث عنه عبثًا في القرن الثامن عشر، يمكنك العثور عليه في كتابات نيتشه.

كتبت كوسيما فاغنر في إحدى رسائلها إلى ماري فون شلاينيتز:

لم أقرأ كتاب نيتشه الجديد بالكامل، اكتفيت بمطالعة بعض الجُمل المُختصرة ووضعته جانبًا، حدث تطور في شخصية الكاتب، وهو ما توقعت حدوثه منذ فترة طويلة وحاربته بكل ما أوتيت من قوة، أسهمت الكثير من العوامل في نشأة هذا الكتاب الحزين! ومن أهمها د/ ري، الذي كان باردًا ولامعًا للغاية، وكأنه مستعبد تمامًا بواسطة نيتشه، ولكن الحقيقة هي أنه يخدعه بل ويتفوق عليه ذكاءً أيضًا، بالتفصيل مثل علاقة يهودا وجرمانيا، تنفي مالفيدا بشكل قاطع هذا الأثر السيئ للدكتور ري، الذي تحبه كثيرًا، كما تطلب مني عدم التخلي عن نيتشه، ولكن لديَّ تعليق على كل جُملة أقرأها في هذا الكتاب، وأعلم أنَّ الشر قد انتصر هنا. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس عشر، ص ١٨٣).

الشر، التنوير، اليهودية، هنا ينشأ العداء الفكري للسامية، يضرب اليهود بكل القيم والمفاهيم عرض الحائط، بل ويدمرون كل شيء، وما يجب أن يُثير انتباهنا في الوقت الحاضر أيضًا هو تحذير دعاة الكلانية(3) من الذكاء وحديثهم الدائم عن الثقة بالحدس الداخلي، والثقة في الحواس والمشاعر أكثر من العقل.

يتناول نيتشه في كتابه "إنسان مُفرط في الإنسانية" والكتابين اللاحقين له، "الفجر" و"العلم المرح" (الصادرة بين عامي ١٨٧٨ و١٨٨٢)، التفكير في الاحكام الأخلاقية المُسبقة، أصبح نيتشه مُعارضًا للأنظمة العقائدية، واتجه لتفضيل الشكل المأثور في الكتابة، يكتب نيشته الآن كروح حرة لأرواح حرة، لكن صداعه ومرضه الشبه دائم دائمًا ما منعانه من ممارسة مهنته كأستاذ جامعي بشكل كامل.

في عام ١٨٧٩، طلب نيتشه إعفائه من الخدمة الجامعية، إنه روح حرة، ولكنه أيضًا يتجول وحيدًا بين العوالم الروحية والواقعية، بين سويسرا وفرنسا وإيطاليا من أجل البحث، كتب نيشته في كتابه "العلم المرح": حتى الأرض الأخلاقية كروية، ولها أقطابها المتعاكسة! حتى الأقطاب المتعاكسة لها الحق في الوجود! لا

يزال هناك عالم آخر لاكتشافه، ولربّما يوجد أكثر من واحد! انطلقوا إلى السفن أيها الفلاسفة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ١٢٥).

دوّن نيتشه في نهاية كتاب "الأرواح الحرة": "في هذا التنوير الألماني المتأخر، تكمُن التجربة المفجعة لموت الإله، والسؤال عمّا سيحدث بعد ذلك، نحن نسقط بلا توقف، لم يعد هناك مركز، ولا قيم مُلزمة وموحدة بعد الآن، نحن بمفردنا تمامًا"، بالفعل كان نيتشه وحيدًا للغاية، فمع كتاباته عن الأرواح الحرة في كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته"، وكتاب "الفجر" مع عنوانه الفرعي الدال على "أفكاره حول الأحكام الأخلاقية المسبقة"، وكتاب العلم المرح، فقد نيتشه تقريبًا كل أصدقائه، ليس فقط أصدقائه في بايرويت، بالإضافة إلى بول ري، وجد نيتشه مرة أخرى شريكًا متكافئًا في الحوار في لو سالومي، والتي وقع في حبها، من غير المجدي الآن التكهن بما إذا كانت أخت نيتشه هي التي دمرت تلك الصداقة، أو ما إذا كان نيتشه نفسه أم لو نفسها، ما يبقى حاسمًا هو أن نيتشه فهم لو، ولو فهمت نيتشه، كما كتب مازينو مونتيناري ثم طالب بـ: "دعونا نعيد لهذين الشخصين استقلاليتهما"، بقي نيتشه وحيدًا بعد فشل صداقته مع لو سالومي وبول ري.

هل يفشل زرادشت؟ إنه يتغيّر باستمرار، تغيّر كثيرًا بالفعل في مسودات نيتشه الأولية، في وقت صداقة نيتشه مع لو سالومي، نجد زرادشت أكثر ليونة، ولا تظهر قسوته، إلا بعد انفصال نيتشه عن لو.

هذه المذكرات، إرث نيتشه الحقيقي، يجب أن تُقرأ دائمًا، في مجلد التعليقات لطبعة الدراسة النقدية، يقدم مازينو مونتيناري إشارات إلى المراحل الأولية لزرادشت، فقط منذ نشر الطبعة التاريخية النقدية الكاملة تمكنا من متابعة تفكير نيتشه حقًا، قبل ذلك ظل كل شيء عالقًا في كتبان أرشيف نيتشه في فايمار.

***

النصوص والتزوير:

في عام 1896 نقلت إليزابيث فورستر نيتشه، أرشيف نيتشه من نومبورغ إلى مدينة فايمار، بالتحديد في "فيلا سيلبربليك" في شارع هومبولت، نشرت نصوص

الفيلسوف المشهور بالفعل، وعرضت أيضًا رسائله وخطاباته على الجمهور، وهنا تحديدًا تبدأ قصة التزوير، من أجل إضفاء الشرعية على نفسها ليس فقط كناشرة، ولكن أيضًا كمفسرة لأخيها، غيّرت بعض عناوين الرسائل، فعلى سبيل المثال، عندما كتب نيتشه إلى صديق «أنت تفهمني جيدًا»، أزالت إليزابيث التحية، عن طريق حرق جزء من الرسالة، لربّما توجّب عليها في نهاية القرن الماضي أن تقوم ببعض التزوير لبناء أرشيف مهم، وقيادة الأعمال التحريرية، ولكي تصبح أول مديرة علمية في ألمانيا.

وبالرغم من ذلك، ينبغي أن تؤخذ تدخلاتها في محتوى النصوص بعد وفاة نيتشه على محمل الجد، أفاد طالب نيتشه هاينريش كوسيليتس، المعروف باسمه المستعار بيتر غاست، في رسالة في عام 1910 عن «إحساس إليزابيث بالحقيقة": يجب أن أخبركم بأحد الأمثلة التي تتبادر إلى ذهني وتضحكني كثيرًا فيما يتعلق بفصل «إحساس السيدة فورستر بالحقيقة"، أضحك، لأنه كشخص عمل في الأرشيف كان عليه أن يدعم كل شيء، بغض النظر عن ما يتعارض مع قيمه الأخلاقية، عندما طبعنا المجلد الثاني من سيرة نيتشه الذاتية في عام ١٩٠٤، تم إدراج رسالة من نيشته يشيد فيها بالقيصر البالغ من العمر ٢٩ عامًا آنذاك بسبب تصريحاته المستنكرة لمعاداة السامية و"جريدة الصليب"، والآن تعرفون كم كانت السيدة فروستر شغوفة بإثارة انتباه القيصر بنيتشه وربّما حثه على الإدلاء ببيان تقديري حول ميول نيتشه، فماذا تفعل لكي تحقق هذا الغرض؟ (يرجى الاطلاع على المجلد الثاني من السيرة الذاتية)، قامت بإدراج جملة في الرسالة المعنية من نهاية أكتوبر ١٨٨٨ (لم تكُن الجُملة موجودة في الرسالة الأصلية): "إنّ إرادة القوة كمبدأ ستكون واضحة له (للقيصر)!" هل تتذكرون من أين جاءت هذه الجملة؟ إنها من مسودة مقدمة كتاب "إرادة القوة" والتي تم طبعها في المجلد الرابع عشر صفحة ٤٢٠، إن كتابة هذه المسودة كانت من بين أصعب مهام فك رموز نيتشه، حاول آل هورنيفر قبلي في فك شفراتها، لكن نصهما كان يحتوي على ثغرات أكثر من الكلمات، لكنهما تمكنا من كتابة هذه الجملة بالكامل فقط، ودائمًا ما يُشكّل العمل المسبق عائقًا أكثر من كونه دافعًا لأي شخص يحاول العمل بعدهم، وبما أنني كنت المسؤول عن إنهاء فك شفرة هذا الجزء، لم ألاحظ آنذاك أنّ فك شفرة هورنيفر، إن إرادة القوة كمبدأ ستكون واضحة لهم «الألمان"، في السياق المذكور

غير صحيحة على الإطلاق، وعندما حصلت على المجلد الرابع عشر مرة أخرى في أبريل الماضي، تأكدت شكوكي بأنه يجب أن تكون الجملة «إن إرادة القوة كمبدأ ستكون واضحة بالفعل!» بدلًا من «ستكون واضحة له (للقيصر)!» أليست هذه نكتة جيدة، وإذا رغبت السيدة فورستر في أن تصبح دقيقة، فيجب عليها الآن أن تطبع هذه الجملة «إنّ إرادة القوة كمبدأ ستكون صعبة الفهم له (للقيصر)». (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الرابع عشر، ص ٧٤٣).

نشر مازينو مونتيناري هذه الوثيقة في مجلد تعليقاته (كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الرابع عشر)، وأشار إلى أنّ رسالة نيتشه المذكورة "كانت تزييفًا كبيرًا".

كتب نيتشه في كتاب "هذا هو الإنسان": "لن أسمح للقيصر الألماني الشاب بشرف أن يكون سائقي". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٢٦٨).

لم تكُن هذه هي الجُملة الوحيدة المفقودة في طبعة كتاب "هذا هو الإنسان" التي نشرها أرشيف نيتشه، بل لم تكُن الفقرة الثالثة بأكملها في الفصل الأول موجودة كذلك، حتى كارل شليختا (انظر إلى الصفحة التالية من المرجع نفسه) نشر النسخة المُزيفة من كتاب "هذا هو الإنسان"، في تلك الفقرة المحذوفة يُعلن نيتشه انفصاله عن شقيقته ووالدته، الأمر الذي لم تكُن إليزابيث قادرة على تبريره بسهولة لاحقًا: "المعاملة التي تلقيتها من أمي وشقيقتي تُثير في نفسي رعبًا لا يوصف حتى هذه اللحظة، اعتقدتُ أنهما شيطانتان قادمتان من الجحيم، فلا تخطأن في تحديد اللحظة التي يمكن أن تصيباني فيها بجروح دامية". (المرجع نفسه).

يمكن القول إنّ العمل الأكثر أهمية للأرشيف هو نشر كتاب "إرادة القوة"، استخدم المحررون بيتر غاست وإرنست وأوغست هونيفر دفاتر ملاحظات نيتشه وترتيبًا معينًا من المذكرات التي تركها نيتشه في تجميع ٤٨٣ قطعة مرقمة، صدرت النسخة الأولى من كتاب "إرادة القوة" في عام ١٩٠١ في المجلد الخامس عشر من طبعة أوكتاف الكبرى، وفي عام 1906، أصدرت إليزابيث فورستر نيتشه وبيتر غاست كتاب "إدارة القوة" (في المجلدين التاسع والعاشر من الطبعة الصغرى)،

والذي تضمن فجأة أكثر من ضعف عدد الأقوال المأثورة، فقد البعض من الطبعة الأولى، وتغير البعض الآخر، يعتبر هذا التجميع أساسًا للطبعة الثالثة من "إرادة القوة"، التي ضمت بعض التغييرات والإضافات غير الجوهرية، في عام 1911، صدرت النسخة المعروفة حتى يومنا هذا بواسطة مُحرر مختلف ألا وهو أوتو فايس، والتي تحتوي الآن على ١٠٦٧ قولًا مأثورًا، فأي من هذه النسخ يجب أن نعتبره العمل النثري الرئيسي لنيتشه؟

***

لمَن النصوص التي نقرأها؟

حتى الطبعة التاريخية النقدية الأولى الكاملة، والتي نشرها أرشيف فايمار منذ عام 1934، توجَب عليها الإشارة في المقدمة إلى أنَّ "إرادة القوة" لا يمكن ضمها للطبعة، لأنها لم تكُن من عمل نيتشه.

في خمسينيات القرن العشرين، اندلع نزاع علمي سخيف حول ما يُسمى بـ"إرادة القوة"، في أعقاب طبعة كارل شليختا، نشر شليختا النص بعنوان مُعدل "من مخطوطات الثمانينيات"، وصل هذا الأمر إلى حد النزاع بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون تصور وجود فيلسوف ألماني بدون عمل رئيسي منهجي.

تمكَّن مازينو مونتيناري، المُحرر الإيطالي لأعمال نيتشه، من نشر مجموعة كاملة من مخطوطات الثمانينيات بترتيب زمني، مطهرًا من كل التزييف، وبالرغم من ذلك، لا يزال من الصعب قراءة أعمال نيتشه، حتى بعد صدور الطبعة الكبرى لكولي ومونتيناري، غالبًا ما تكشف مجلدات التعليقات أننا نقرأ لمؤلفين مختلفين تمامًا تحت اسم نيتشه.

على سبيل المثال، ترجم نيشته فصلًا من أحد أعمال عالم وظائف الأعضاء الفرنسي تشالز فيري في مكتبة نيس، ومن ثم دوَّن نيشته تحته: (فيري، ص ٨٩). (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة، طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث عشر، ص ٤٢٩).

حذف محررو فايمار قبل كولي ومونتيناري هذه الملاحظة، وتحوَّل فصل مكون من سبع صفحات من كتاب "الانحطاط والجريمة" إلى نص لنيتشه، أو نقرأ

مقتطفات من رواية "تريسترام شاندي" للورانس ستيرن، وتعجب بذكاء نيتشه البالغ ١٥ عامًا فقط: "حولت إليزابيث فورستر نيتشه مقتطفات من تريسترام شاندي إلى تأملات فلسفية أصيلة تخص نيتشه الشاب".

كتب مونتيناري: "كل أعمال نيتشه، مثل إنسان مفرط في إنسانيته والفجر، تتحدى كل القيود والأنظمة، إنهم منفتحون ويسعون إلى "تحرير الأرواح"، وزرادشت، بعد التمرد الإيجابي ضد ميول بايرويت الجمالية المنحطة، يبحث نيتشه الآن عن إثبات ذاته.

وفي نهاية كتاب "الأرواح الحرة"، تكمن تجربة موت الإله، ويأس الرجل المجنون من اللامبالاة العامة، عرف هذا "الرجل المجنون" فيما بعد باسم "زرادشت"، يظهر "زرادشت" نفسه في الفقرة الأخيرة من كتاب "العلم المرح"، لا يوجد نموذج لشكل زرادشت، ولا حتى كتاب مقدس، وسيكون من غير المجدي البحث عن واحد.

يمكن اعتبار زرادشت على أنه المحاولة الأخيرة لتجاوز أزمة الحداثة من خلال عمل متماسك، وهذا ما يجعل زرادشت جذابًا ومنفرًا في نفس الوقت، مُثيرًا للإعجاب في قدرته على التمرد، وخطيرًا للغاية بسبب تفضيلاته الراديكالية، اهتم نيتشه بإمكانية الحياة بعد الموت، والعودة الأبدية للنفس، دون إمكانية تجاوز حدود هذا العالم.

ظلّ الجزء الرابع من زرادشت مخفيًا ولم يتم إدراجه ضمن طبعة المجلد الواحد عام 1887، هل هناك فلسفة لنيتشه بعد زرادشت، الذي وصفه نيتشه بأنه دهليز لفلسفته؟ إرادة القوة؟ في وقت مبكر من عام 1932، طالب توخولسكي: "لا نرغب في قراءة أعمال لإليزابيث فورستر نيتشه، بل نرغب في قراءة أعمال فريدريك نيتشه".

كان نيتشه قارئًا مهووسًا، يأخذ كل جُملة من القرن التاسع عشر ويُفكّر فيها بشكل راديكالي، بما في ذلك الجُمل حول قيمة الحياة وعدم قيمتها، التي يمكن اقتباسها بسهولة من قِبل النازيين، لم يكُن هناك حاجة للتزوير هنا، كان كل شيء مقبولًا، كتاب مفتوح لكل الاتجاهات الفكرية، شغلت قضية "معرفة لمَن نقرأ" كل علماء النصوص والقرّاء النقديين، إليزابيث بدلًا من فريدريك، فيري بدلًا من نيتشه، أو بودلير أو تولستوي أو الإخوة غونكور أو ماكسيميليان دروسباخ.

***

ورشة عمل نيتشه:

كتب نيتشه عن نشأة زرادشت: "اكتفيت بعشرة أيام فقط، ولم أكن بحاجة لمزيد من الوقت بأي حال من الأحوال، لا في الكتاب الأول ولا الثالث ولا الأخير". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٤١) أسست هذه الجملة أسطورة خلق زرادشت.

وكان نيتشه محقًا بالفعل، فلا تستغرق كتابة الأجزاء الفردية وقتًا طويلًا، وبالرغم من ذلك، عندما قرّر نيتشه في وقت معين الكتابة من أجل النشر، دائمًا ما كان يستغرق فترة أطول من أجل القراءة والكتابة وتجربة الأفكار التي تراوده، وينطبق هذا على جميع أعمال نيتشه، بما في ذلك زرادشت، حتى وإن بدا هذا الكتاب مختلفًا تمامًا عن بقية كتب نيتشه.

يعود ذكر اسم زرادشت أول مرة إلى أغسطس ١٨٨١ في مقال بعنوان "الظهيرة والأبدية: إشارات إلى حياة جديدة" (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد التاسع، ص ٥١٩)، يتحدّث عن زرادشت البالغ من العمر ثلاثين عامًا وعزلته التي استمرت لمدة عشر سنوات، في ذلك المقال خطط نيتشه للأربعة أجزاء وتحدّث عن "أسلوب الحركة الأولى في السيمفونية التاسعة لبيتهوفن" كأسلوب للكتاب الأول، لذا فإنّ التصميم الموسيقي لكتاب هكذا تكلم زرادشت هو بالفعل جزء من مخطط نيتشه لم يكُن من محض الصدفة، بل يمكن اعتباره بأكمله عملًا موسيقيًا. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٣٥).

لم تتغيّر طريقة إعداد نيتشه لزرادشت كثيرًا عن طريقة إعداده لكتبه الأخرى، ويظهر ذلك بوضوح من خلال المسودات التمهيدية، وتعد هذه المسودات نصوصًا في طريقها إلى أن تصبح أقوالًا مأثورة (وهو أسلوب نيتشه المعتاد في الكتابة كما ذكرنا سابقًا)، يصل نيتشه إلى النص الخام من خلال تدوين أفكاره وقراءاته، ومن ثم يُعيد صياغته وتكثيفه وتدقيقه، ليصل إلى الشكل التعبيري المأثور والمصاغ ببراعة، والذي طوره نيتشه منذ كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته" وما بعده، إلى

جانب زرادشت، تتضمن مجموعة الأشكال التعبيرية الموجودة في كتب نيتشه مثل هذه الأقوال المأثورة والموجزة، حيث تتكون من بضع فقرات ونادرًا ما تكون أطول من صفحة واحدة، وتتضمن أيضًا القوافي والعبارات الحرة.

تُظهر مقارنة النصوص، على سبيل المثال، أنّ نيتشه قام بإدراج مجموعة كاملة من الجُمل الفصاغة بعناية في الكتاب الأول لزرادشت -والتي جمعها في الأصل من أجل لو سالومي-وعند الفحص الدقيق لنص زرادشت، يمكن رؤية أنه ينقسم إلى مجموعة من الجمل المرتبطة بالموضوع، مثال:

يبلغ البعض من العمر ما لا يليق بحقائقهم وانتصاراتهم؛ فلم يعد للفم الخالي من الأسنان الحق في التحدّث عن كل الحقائق.

وعلى مَن يرغب في المجد والشهرة أن يتخلى عن الشرف، وأن يجيد فن الرحيل في الوقت المناسب.

عليك أن تتوقف عن منح نفسك للأكل، حينما تكون مستساغًا أكثر، هذا ما يعرفه أولئك الذين يرغبون في الحفاظ طويلًا على محبة الناس لهم. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الموت اختيارًا، ص ٩٤).

إذا حذف حرف العطف قبل الجُملة الثانية، سيفقد النص تقريبًا أي سياق مشترك بين الجُمل، يمكن أن تأتي الجُمل الثلاث المستقلة كآراء وأقوال متنوعة في كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته" بدلًا من زرادشت.

سجل نيتشه أفكاره باستمرار، حتى أثناء نزهاته الطويلة، وأعاد تدوين ملاحظاته مرات عديدة، وجمع مجموعة من الجُمل من دفاتر ملاحظاته القديمة، ومن ثم جعل زرادشت يتحدّث عنها بصفة رمزية، ثم تخلى عن هذه الفكرة، واستخدم لاحقًا أجزاءً من تلك المجموعة، مع تغييرات طفيفة في زرادشت النهائي.

أكثر ما حفزَ نيتشه دائمًا على التفكير هو مطالعة النصوص المختلفة، حيث كان نيتشه قارئًا مهووسًا، ولا تزال مكتبته المثالية والواسعة في فايمار -والتي تعتبر جزءًا من مكتبة الدوقة آنا أماليا- غير مستكشفة بشكل كافٍ بعد، قال مازينو مونتيناري عند سؤاله عمّا إذا كان نيتشه قد قرأ أي كتاب على الإطلاق بالفعل: "ماذا يمكن لشخص عميق للغاية مثل نيتشه أن يفعل سوى القراءة؟" ربّما رأى

نيتشه جبال إنجادين بشكل ضبابي فقط، ولم يعتد زيارة المتاحف، إلا أنه قرأ في المقام الأول الأدب المعاصر، حتى اسم زرادشت نابع من القراءة والمطالعة.

حينما يقرأ المرء تعليق ماري لويز هاس وتعليق ماريدو مونتيناري (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الرابع عشر) بالتوازي مع زرادشت، سيستطيع أن يفهم ليس فقط طريقة عمل نيتشه، ولكن في كثيرًا من الأحيان النص أيضًا، من خلال التعليق على فكرة ما وفحصها، يمكننا أن نصادف مؤلفًا آخر، أو مسودة، أو حذفًا يجعل الجُملة واضحة، هذه النظرة على ورشة عمل نيشته وكتبه تزيل الأساطير المُحيطة بالشاعر، وتجعلنا شركاء في الحوار مع فيلسوف، تستند فلسفته على الحوار مع عصره الذي لا يزال عصرنا.

***

أثقل وزنًا:

كتب نيتشه بين عامي ١٨٨٢ و١٨٨٣: "لا أرغب في عيش تلك الحياة مرة أخرى، كيف تمكنتُ من تحمُّلها؟ من خلال الإبداع، ما الذي يجعلني أتحمَّل هذا المشهد؟ نظرتي إلى "الإنسان الأعلى"، الذي قبل الحياة بكل تعقيداتها وتحدياتها، والتي حاولتُ أن أتقبلها أنا أيضًا". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ١٢٧).

اهتم زرادشت بفكرة تقبُّل الحياة، وكانت هدف رحلاته العودة الأبدية هي مركز الاستنتاج الأخلاقي، بأن تعيش حيث يمكن لكل شيء أن يعود مرة أخرى، الفقرة ما قبل الأخيرة من كتاب "العلم المرح" -الكتاب السابق لزرادشت- تُفسر تلك الفكرة الثقيلة.

ماذا ستفعل إذا تسلل شيطان يومًا ما أو ليلة ما إلى عزلتك الأكثر انزواءً وقال لك:

"سيتعين عليك أن تعيش هذه الحياة مرة أخرى ومرات لا حصر لها، كما تعيشها الآن، ومثلما عشتها من قبل، ولن يكون هناك شيء جديد في ذلك، سوى أن كل ألم وكل متعة وكل فكرة وكل تأوه وكل ما هو متناه.في الصغر والكبر في حياتك يجب أن يعود إليك، كل شيء بنفس النظام والتسلسل -بما في ذلك هذا العنكبوت،

وضوء القمر هذا بين أشجار الغابة، وهذه اللحظة وأنا، إن ساعة الوجود الرملية الأبدية تنقلب مرارًا وتكرارًا- وأنت معها، كأنك ذرة غبار".

ألن تُلقي بنفسك على الأرض وتصر على أسنانك، وتلعن هذا الشيطان الذي كلمك بهذه الطريقة؟ أم ستعيش لحظة رائعة يمكنك فيها إجابته: "أنت بالتأكيد إله، فلم أسمع شيئًا بتلك الإلهية من قبل قط!" إذا سيطرت عليك هذه الفكرة فستحولك إلى شخص آخر، ولربّما ستسحقك، والسؤال المطروح بخصوص الجميع وكل شيء: "هل تريد هذا مرة أخرى، ومرات لا حصر لها؟" سيهبط بثقله على تصرفاتك كأثقل وزن! كم سينبغي عليك أن تصبح محسنًا تجاه نفسك وتجاه الحياة، حتى لا ترغب في شيء غير هذا الإثبات الأبدي، ولربّما يكون عقابًا أبديًا؟ (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٥٧٠).

ربّما تُجيب الفقرة الأخيرة من زرادشت على السؤال الذي طرحه نيتشه في عام 1881:

"هل سيقال لنا ذات يوم أننا عند اتجاهنا غربًا كنّا نأمل في الوصول إلى الهند، لكن مصيرنا كان محتومًا بالفشل بسبب اللانهاية؟ أم ماذا يا إخوتي؟". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٣٣١).

***

الفصل الثاني
كتاب للجميع وليس لأحد

ظهور زرادشت:

كتب نيتشه عن الجزء الثالث من زرادشت: «عثرتُ على زرادشت الثالث وانتهيتُ منه في شتاء عام 1883/1884، تحت سماء نيس المُشرقة، والتي كانت آنذاك تُشرق في حياتي للمرة الأولى». (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٤١)

ظهرت الأجزاء الثلاث الأولى من زرادشت على حدة بين عامي 1883 و1885، فعندما نُشر الجزء الأول من الكتاب، لم يكُن واضحًا ما إذا كانت هناك أجزاء أخرى ستتبعه أم لا، وربّما قرّر نيتشه كتابة الأجزاء الأخرى بعد صدور هذا الكتاب، لم يعثر نيتشه على ناشر للكتاب الرابع من زرادشت، فطبعه بشكل خاص في أربعين نسخة فقط، واحتوت صفحة العنوان على ملاحظة «الجزء الرابع والأخير».

تغيّرت الخطة الشاملة لزرادشت باستمرار، حيث تم أيضًا ذكر الكتاب الخامس والسادس في مذكرات نيتشه، حتى بعد اكتمال الكتاب الرابع، أنشأ نيتشه خطة لكتاب آخر، والتي لم يتم تنفيذها أبدًا.

وكجزء من تصور الجزء الرابع، فكّر نيتشه في تصميمه على شكل مجموعة من القصائد، وفي وقت لاحق، أضاف المزيد من الأغاني التي يتحدّث بها الشخصيات في الكتاب، بعد انهيار نيتشه في تورينو عام 1889، أصبحت مخطوطة ديونيسوس-ديثيرامنبس(4) جاهزة للطباعة، على الرغم من قرار نيتشه: "أريد أن أتكلم، ولا مزيد من زرادشت بعد الآن" (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ٨٣)، والتي تُظهر بوضوح صعوبة وضع نقطة نهاية لهذا العمل، لا يفتقر هذا الكتاب إلى التصنيف فقط، بل أيضًا إلى القُرّاء الذين أهداهم نيتشه زرادشت، إلى مَن يتحدّث نيتشه، وإلى مَن يتحدّث زرادشت؟

عندما أتيت إلى الناس للمرة الأولى، ارتكبتُ حماقة الناسكين المعهودة، تلك الحماقة الكبرى، هي وقوفي في ساحة السوق.

وعندما تكلمت مع الجميع، لم أكن أخاطب أحدًا، وفي المساء كان رفاقي البهلوانات يسيرون على الحبل المشدود والجثث، وكنت شبيهًا للغاية بإحدى الجثث. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الإنسان الراقي، ص ٣٥٦).

لا يُشير ذلك الاقتباس إلى عنوان الكتاب الفرعي فقط، بل يُشير أيضًا إلى خطاب زرادشت في الجزء الأول، حيث يفشل الخطاب الذي ألقاه زرادشت على جمع كبير من الناس في ساحة السوق.

رُبّما بدا نشر الكتاب في نظر نيتشه بمثابة "حماقة ناسك"، فبالفعل توجد إشارة أخرى إلى العنوان الفرعي قبل ذلك الاقتباس: "لقد حذرت (زرادشت) من ضلالته، وكنت أول مَن حذّر من الشفقة، ليس على الجميع ولا على أحد بعينه، بل على نفسك ومَن يُشبهها". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل أقبح الآدميين، ص ٣٣٠).

يجب على نيتشه نفسه بدلًا من ذلك أن يلجأ إلى "الجميع ولا أحد"، فزرادشت وأمثاله ليسوا متاحين له كمخاطبين دومًا، يُعبّر الكتاب عن الوحدة، وهي وحدة نيتشه نفسه، يعود زرادشت مرارًا وتكرارًا إلى وحدته، التي يستقبلها بامتنان، ولكنه يشتاق أيضًا للعودة إلى "أبنائه"، يصف نيتشه الوحدة التي يتحدّث عنها الكتاب بأنها وحدة المسافة:

"[...] كل هذا ليس له أهمية فهو لا يُعبّر عن المسافة والوحدة اللازوردية، حيث يستقر هذا العمل، ولدى زرادشت الحق الأبدي في قول: إنني أرسم حولي دوائر وحدودًا مقدسة، ولا يوجد إلا القليلون جدًا الذين يمكن لهم أن يرقوا إليّ، لقد بنيت لي سلسلة جبال من الجبال الأكثر قداسة". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٤٣)

كتاب مُقدّس جديد

ظلّ نيتشه فخورًا بزرداشت حتى بعد مرور أربع سنوات على انتهاء الجزء الرابع: "هذا الكتاب -الذي يتردد صداه عبر العصور- ليس فقط أرقى كتاب في العالم فحسب[.....] ولكنه أيضًا الكتاب الأعمق[.....]". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٢٥٩)، أثناء عمل نيتشه على كتاب

"هذا هو الإنسان"، ظهر ذلك الفخر بوضوح في إحدى رسائله إلى بول ديوسين:

سيتم تسليط الضوء لأول مرة على زرادشت في كتاب "هذا هو الإنسان"، الكتاب المقدس للمستقبل، وأعلى انفجار للبشرية، والذي يتضمن مصير البشرية بأكملها". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس عشر، ص ١٨٨).

زرادشت ككتاب مقدس للمستقبل؟ يبدو أنه من المستحيل تصديق أنّ نيتشه كان ينوي كتابة كتاب مقدس جديد.

أدت الكتب الثلاثة السابقة لزرادشت (إنسان مفرط في إنسانيته، والفجر، والعلم المرح) إلى تطرف التنوير الألماني:

يتجمد الخطأ تلو الآخر بهدوء، ويتجمد أيضًا حتى الموت كل ما هو مثالي، على سبيل المثال، تتجمد العبقرية هنا حتى الموت، وعلى بُعد زاوية منها يتجمد القديس والبطل تحت طبقات سميكة من الجليد، وفي النهاية يتجمد الإيمان، أو ما يُعرف باسم العقيدة، وتتجمد الرحمة أيضًا بشكل ملحوظ[.....]. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٢٣).

يتحدّث مازينو مونتيناري عن سوء تقدير نيتشه نفسه للكتاب:

خطأ نيتشه فيما يتعلق بزرادشت، هو اعتقاده بأنه منح البشرية كتابًا مقدسًا جديدًا، وكان خطأه الثاني هو الاعتقاد بأنّ زرادشت غير قابل للفهم، زرادشت ليس كتابًا مقدسًا، وليس كتابًا غير مفهوم، وبالطبع ليس كتابًا للمُبلغين، وهذا ما اعتقده أولئك الذين -مثل غاست الذي يعتبر نفسه استثناءً- يعتبرون أنفسهم مُبلغين ومباركين.

إنّ السؤال الذي يطرح نفسه بشدة هو ما إذا كان نيتشه قد ارتكب الخطأ الأول حقًا أم أنّ التعبير خانه فقط؟ هناك الكثير من الأدلة التي تُشير إلى أنه لم يكُن يقصد تقديس كتابه بعبارة "كتاب مقدس جديد"، بل إنه رغب في الإشارة إلى تفرده وتأثيره المنتظر بشدة وموقفه المُناهض للدين على وجه التحديد.

في كتاب "هذا هو الإنسان"، يُنكر نيتشه تمامًا أنّ زرادشت هو مؤسس لدين

جديد:

"لا يوجد نبي يتحدث هنا، ولا أحد من تلك الوحوش المريضة بالسلطة والذين نسميهم مؤسسي الأديان". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٢٥٩).

وبالرغم من كل ذلك، ألا يعتبر زرادشت مغويًا؟ ولكن ماذا سيقول عند عودته إلى العزلة للمرة الأولى؟

بالضبط عكس ما سيقوله أي حكيم، أو قديس، أو مُخلص للعالم، أو غيرهم من المنحطين في مثل هذه الحالة...." (المرجع نفسه)

ولكن إذا لم يكُن زرادشت نبيًا أو قديسًا أو رجلًا حكيمًا، فلماذا توجد الكثير من التلميحات الأسلوبية إلى الكتب المقدسة في كتابات نيتشه؟ ولماذا يوجد الكثير من الاقتباسات من الكتاب المقدس، والتي تم تعديلها قليلًا في كثير من الأحيان؟

Telegram:@mbooks90

بالإضافة إلى الإعلان المُتسرع الذي رُبّما يكون نيتشه قد سعى إليه للحصول على صدى مهيب ورفيع لكتابه الجديد، يمكننا عرض استنتاج آخر من "هذا هو الإنسان":

"هناك مثال آخر يجرى أمامنا [....] المثل الأعلى للعقل الذي يستمتع بسذاجة، أي بشكل لا إرادي وبنوع من الوفرة والقوة المفرطة، مع كل ما كان يسمى مقدسًا، صالحًا، ولا يمكن المساس به، وإلهيًا؛ [.....]". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٣٨).

ما ذكره نيشته في هذا الاقتباس السابق عن المثل الأعلى للعقل، لا يرتبط بشخصية نيتشه فقط، بل يرتبط أيضًا بكتاب زرادشت، يُقدّم نيتشه تلميحًا إلى ذلك من خلال أحد الأقوال المأثورة في كتاب "العلم المرح"، والتي تتطابق تقريبًا مع مقدمة زرادشت، يحمل هذا القول المأثور عنوان "بداية التراجيديا"، ونعثر على صدى ذلك العنوان في نهاية المقطع النصي من خلال جُملة "هكذا بدأ سقوط زرادشت"، وفي عام ١٨٨٦، أي بعد الانتهاء من زرادشت، كتب نيتشه مقدمة الطبعة الثانية لكتاب "العلم المرح"، والتي لعب فيها نيتشه على هذا القول المأثور، وفي نفس الوقت وبشكل غير مباشر على زرادشت أيضًا.

يمكن تفسير العديد من الأساليب الكتابية في زرادشت، والطابع الديني الزائف في بعض الفقرات على أنّ نيتشه كان ينوي اللعب بطريقة أسلوبية بكل ما كان مقدسا في السابق.

الأسلوب:

من المناسب الآن ذكر لماذا يُثير أسلوب زرادشت الاهتمام، على الرغم من استخدام الفلاسفة الآخرون في ذلك الوقت لغة غنية بالصور أو "لغة درامية"، ولم ينزعج أحد من هذا الأسلوب حتى الآن، ولكن على النقيض ينزعجون للغاية من أسلوب كتابات نيشته وخاصة زرادشت، ربّما إذا كتب نيتشه هذا الكتاب فقط، لأصبحت كل هذه التعليقات على أسلوب زرادشت مجرد تعليقات هامشية غير مهمة.

والآن عند وضع الأعمال الأخرى لنيشته مثل "إنسان مفرط في إنسانيته" و"الفجر" و"العلم المرح"، جنبًا إلى جنب مع زرادشت، يتضح لنا أنّ نصوص هذه الأعمال عبارة عن مقطوعات نثرية موجزة ورائعة، مقارنتها ببعضها تُثير الدهشة.

إنّ الأمر الحاسم في نقاشنا حول الأسلوب، هو أنّ نيتشه نفسه جعل الأسلوب موضوعًا مهمًا في أطروحته الفلسفية، حيث أصبحت مسائل الأسلوب بالنسبة له، إذا جاز التعبير، موضوعًا للفلسفة.

كان العمل على كتاب «إنسان مفرط في إنسانيته" بمثابة فحص مكثف لشكل التعبير اللغوي الخاص بنيتشه، يظهر ذلك الشكل بوضوح في العديد من الأقوال المأثورة المتعلقة بالأسلوب، طبقًا لنيتشه تعد عملية تحسين الأسلوب تحسينًا للفكر أيضًا، تحسين الأسلوب يعني تحسين الفكر، ولا شيء غير ذلك، ومَن لم يعترف بهذا على الفور، فلن يقتنع به أبدًا. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثاني، ص ٦١٠).

في تباين ملحوظ لهذا الاعتبار، يُظهر تحسين الفكر في الوقت ذاته تحسينًا في القدرة على التواصل، ويكتسب أهمية شديدة كونه شرط مسبق للتفاهم الأوروبي بين الأرواح الحرة:

يعني تحسين الكتابة أيضًا تحسين الفكر، أي ابتكار أشياء أكثر قابلية للمشاركة والقدرة الفعلية على إيصالها؛ حيث تصبح قابلة للترجمة إلى اللغات الأخرى؛ [.....] فمن يدعو إلى العكس، ولا يهتم بشأن الكتابة الجيدة والقراءة الجيدة -فكلتا المهارتين تنموان معًا وتنهاران معًا- فهو في الواقع يظهر للشعوب طريقًا يمكنهم من خلاله أن يصبحوا أكثر وطنية، فيزيد من مرض هذا القرن ويصبح عدوًا للأوروبيين المثقفين، وعدوًا للأرواح الحرة". (انظر إلى الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثاني، ص ٥٩٢).

قوض كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته" أي تعصب، ودعم التنوير بأسلوب بسيط وواضح.

ضد الصور والأمثال، من خلال الصور والأمثال يمكنك إقناع الناس بشيء ما، ولكنك لا تستطيع إثباته، لذلك في العلوم، يوجد خوف كبير من استخدام الصور والأمثال؛ حيث لا يُرغب هنا في الشيء المقنع -الذي يجعلك تؤمن به- بل يُطالب بالشك البارد في كل شيء حتى في أسلوب التعبير والجدران الخالية، لأنَّ الشك هو معيار الاختبار لليقين. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثاني، ص ٦١٤).

حول هذه النقطة يجب أن نطرح سؤالًا عن أسلوب زرادشت بشكل عاجل ومريك، فزرادشت يتكلم تقريبًا فقط بالصور والأمثال، والفضيحة في ذلك هي أنَّ نيتشه على ما يبدو كان يعلم ما يفعله، إذًا هل زرادشت كتاب صُمم عمدًا للإقناع الأسلوبي؟ هل ينبغي أنَّ يخشى من "معيار أختبار اليقين"؟

صرّح نيتشه في كتابه "هذا هو الإنسان" عن تفسير آخر لأسلوبه، وحضر لذلك أيضًا في كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته"، فنجد هناك مقطعًا صغيرًا يمكن أن يُسمى "تصور الأسلوب المثالي".

تعاليم الأسلوب الراقي.

يمكن لدراسة الأسلوب أن تكون أولًا الدراسة التي تسمح بالعثور على التعبير المُناسب لنقل أي حالة مزاجية إلى القارئ والمستمع، وثانيًا أن تكون الدراسة التي تسمح بالعثور على التعبير المناسب عن الحالة المزاجية الأفضل للإنسان، وبالتالي

يغدو نقلها وإبلاغها أمرًا محبذًا [...] ذلك ما ينبغي أن تكون عليه تعاليم الأسلوب الأرقى، الأسلوب الموافق للإنسان الجيد. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثاني، ص ٥٩٣).

ظلّ معيار القوة التواصلية قائمًا، بل تطور إلى معيار "نقل الحالة المزاجية الأفضل"، وفي مواجهة اتهامه باستخدام الأسلوب الدعائي، زعم نيتشه أنّ زرادشت يمثل محاولة لنقل حالة مزاجية، وهي حالة مزاجية غير عادية وتتطلب وسائل أسلوبية خاصة، ذكر نيتشه في كتاب "هذا هو الإنسان".

لتوصيل حالة من التوتر الداخلي للشجن من خلال الرموز بما في ذلك إيقاع هذه الرموز -هذا هو فن كل أسلوب، وبالنظر إلى تنوع حالاتي الداخلية بصورة استثنائية، فإنني قادر علي التعبير بالعديد من الأساليب- [.....]، إذًا، يصبح الأسلوب جيدًا عندما يستطيع نقل حالة داخلية حقيقة، والتي يتم التعبير عنها من خلال الرموز أو الحركات أو الإيماءات[....] بفرض وجود آذان تسمع، ووجود أناس جديرين بمثل هذا الشجن، وأنه لا يوجد نقص في أولئك الذين نحاول مشاركتهم هذا الشجن، فعلى سبيل المثال، فإنّ "بطلي زرادشت" لا يزال يبحث عن مثل هؤلاء الناس، ومما يبدو أنه سيكون عليه البحث لفترة طويلة! (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٠٤).

***

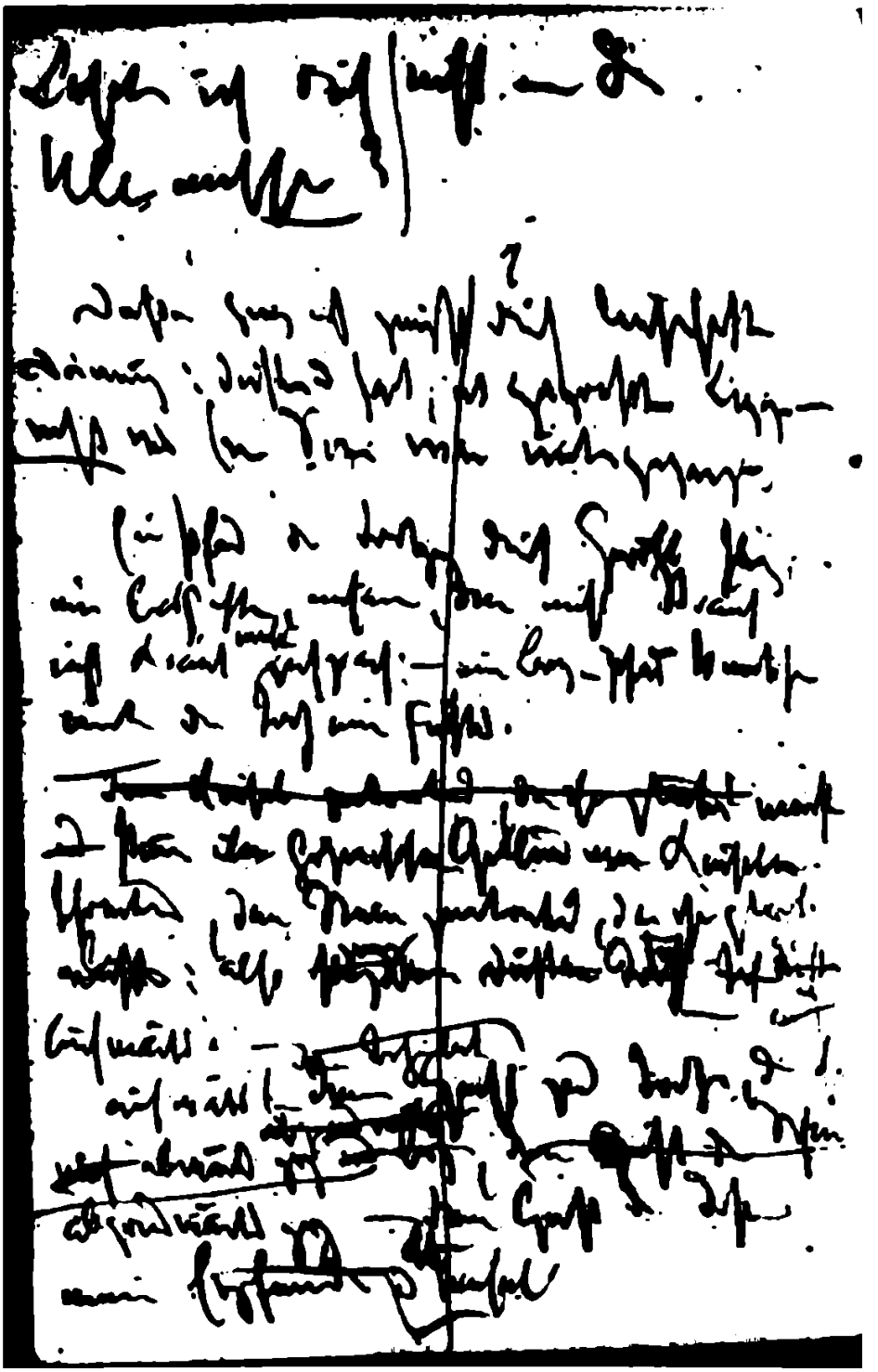

(مؤسسة فايمار الكلاسيكية)

النغمات الهالكيونية:

وفقًا لتعليق نيتشه السابق، يعد أسلوب زرادشت مُحاولة لنقل حالة داخلية

معينة، يستبعد نيتشه في تعليقه أولئك "غير القادرين على مثل هذا الشجن وغير المستحقين له"، يُعبّر ذلك مجددًا عن الفكرة الأساسية للكتاب، فإذا لم يكن كتابًا مقدسًا، فهو كتاب "للجميع وليس لأحد"، مُحرّم على غير "المُبلغين" الوصول إليه وفهمه، يكتسب الأسلوب في هذا السياق وظيفة مُنتقاة جديدة، أليست كل هذه الاعتبارات مُزعجة حقًا؟ لقد قبلنا تصريح نيتشه حول فكرة الكتاب الباطنية، لكن الأكثر إثارة للاهتمام بالفعل هو عدم اتباعنا له في هذا الصدد، وإنكارنا عدم فهم غير "المُبلغين" للكتاب ببساطة، وعلى أية حال، لم يرغب نيتشه أبدًا في قرّاء مطيعين وتابعين له على الدوام.

عندما أتخيل صورة القارئ المثالي، فإنني أصبح دائمًا وحشًا من الشجاعة والفضول، بالإضافة إلى بعض من المرونة والدهاء والحذر [...]. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٠٣).

تُفسّر هذه الجُملة على أنها تشجيع للفضوليين على عدم الاستسلام، وأيضًا تعتبر دعوة لفهم ما يقصده نيتشه، حينما يتحدّث عن "القادرين على الشجن والمستحقين له".

وفقًا لهذا التعبير، فإنّ اختزال زرادشت إلى مجموعة من الجُمل، أو إلى مجموعة من الأفكار المركزية، قد يكون غير كافٍ، على الرغم من أنّ كل هذه الأساليب تمثل جوانب مهمة من التفسير الشامل، وبناءً على الاعتبارات المتعلقة بالأسلوب، يُمكننا إضافة جانب آخر الآن، يجب أن يهدف الأسلوب الجيد -بحسب تعليق نيتشه- إلى إيصال شيء ما، لا يقتصر فقط على الأفكار المُعبّر عنها، سواء حالة داخلية، أو حالة مزاجية، أو حالة من الشجن، وقد يكون هذا الهدف هو إيجاد التعبير المناسب لنقل الحالة المزاجية الأفضل للإنسان، ستتسأل بالطبع، هل هناك إشارة واضحة ومفهومة لتلك الحالة المزاجية؟ في الواقع، يقدّم نيتشه معلومات أكثر تفصيلًا عن ذلك.

يجب على المرء الاستماع إلى النغمات الهالكيونية الباعثة للهدوء والسلام القادمة من "هكذا تكلم زرادشت"، قبل إصدار حكمه الظالم بشأنه. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٢٥٩).

يأتي مصطلح هالكيون Halcyon من الأساطير اليونانية:

أرسل إله الرياح إلى العاشقين كايكس وألكيونة -بعد تحولهما إلى زوج من طيور الرفراف- طقسًا هادئًا وخاليًا من الرياح، ليتمكنوا من بناء عش لهم في فصل الشتاء، ووفقًا للأسطورة، أطلق البحارة اليونانيون في العصور القديمة على هذه الأيام الخالية من الرياح في الشتاء اسم أيام هالكيونية.

تُعبّر صورة أيام الشتاء الخالية من الرياح عن الهدوء والسكينة والراحة المؤقتة بعد النجاة من الصراعات، وقبل هبوب العواصف الوشيكة.

ولكن في المقابل، على سبيل المثال لا الحصر، افتقر زرادشت إلى نقد نيتشه للمواقف الفلسفية والدينية كما في أعماله السابقة واللاحقة.

ما من "متعصب" يتحدّث إليكم هنا، هذه ليست موعظة، وليس مطلوبًا منكم الإيمان بأي شيء، فمن الامتلاء اللامتناهي للنور وعمق السعادة تتساقط كلماتي قطرة قطرة- إنّ التأني الرقيق هو إيقاع هذه الخطب. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٢٦٠).

إنّ الحالة المزاجية الهالكيونية -إن وجدت- هي حالة مزاجية فلسفية، ظهرت هذه الاستعارة الشتوية بالفعل في المقطع المقتبس أعلاه من كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته": "يتجمد الخطأ تلو الآخر بهدوء، ويتجمد أيضًا حتى الموت كل ما هو مثالي.....".

يرى نيتشه أنّ راديكالية عصره التنويري هي البرودة، المعرفة المُستنيرة المُتطرفة باردة للغاية، بدون مثل أعلى، وبدون إله، وبدون تفكير "صادق" قادر على إيجاد بديل لها، العثور على الهدوء والسعادة بعد وقت عاصف هو جزء من الحالة المزاجية الفلسفية التي ينقلها زرادشت.

يمكن تصنيف لغة "الديثرامب" كمصطلح موازٍ لـ"النغمات الهالكيونية" لنفس الحالة المزاجية الفلسفية.

المشكلة النفسية التي يمثلها نمط زرادشت هي [...] كيف للشخص الذي له أحد بصيرة في الحقيقة وأكثرها رعبًا، والذي فكّر في أعمق الأفكار وأكثرها "دفقًا للهاوية"، ألا يجد في هذه الأشياء أي اعتراض على الوجود ولا حتى على عودته

الأبدية، كيف له أن يجد الأسباب، لكي يغدو الإيجاب الأبدي لكل شيئ [...].

أي لغة ستتحدث بها مثل هذه الروح عندما تتحدث مع نفسها؟ إنها لغة شعر الديثرامب، أنا مخترع الديثرامب، أنصتوا إلى الطريقة التي يتحدث بها زرادشت مع نفسه قبل شروق الشمس (الفصل الثالث، ١٨): [...]. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص٣٤٤).

يُشير نيتشه من خلال جُملة "أنا مخترع الديثرامب" إلى أنه أعاد تعريف مصطلح "شعر الديثرامب"، وهي أغنية دينية لديونيسوس إله الخمر في العصور القديمة.

تمثل لغة الديثرامب الشكل اللغوي الذي يهدف إلى نقل الحالة المزاجية الفلسفية لزرادشت، ليست التجارب بالمعنى المعتاد هي التي تخلق هذه الحالة المزاجية لزرادشت، بل التجارب الفكرية، يُشير الاقتباس إلى مراكز زرادشت الفكرية بعبارتي "أعمق الأفكار" و"العودة الأبدية"، ويتم تعزيز العلاقة بين الحالة المزاجية والأفكار الفلسفية، حيث تتعلق بتجربة نيتشه لهذه الأفكار، وتشمل الوحدة التي نشأت فيها هذه الأفكار، وفترة التساؤل والانتظار التي سبقتها.

***

قصيدة سيلس ماريا

جلست هنا، انتظرت وانتظرت، ولكن من أجل لا شيء، بمعزل عن الخير والشر، الآن أستمتع بالنور، ولاحقًا سأستمتع بالظل، كل هذا مجرد لعب، كل بحر، كل ظهر، كل وقت بلا هدف.

ثم فجأة يا صديقتي! أصبح الواحد اثنين، حين مرّ زرادشت بجانبي.

(انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٦٤٩).

إذا تم رفض الافتراض القائل بأنّ زرادشت هو كتاب مقتصر على فئة معينة، فإنّ تعليقات نيتشه الذاتية تقدم للقُرّاء الفضوليين فرصة استخدام مثل هذه التلميحات والإشارات من أجل إعادة بناء الأحداث، التي تمثل الأفكار المُعبّر عنها في زرداشت، والممثلة لنيشته نفسه.

لم تكن الأفكار بالنسبة له (نيتشه) مجرد أحداث بل كانت كل حياته، كما قلنا جميعًا من قبل. (انظر إلى مذكرات مازينو مونتيناري، ص ٧٤).

***

النمط:

يصف نيتشه في كتابه الأخير "هذا هو الإنسان" نشأة أول كتاب لزرادشت: وعلى هذه الدروب تبادر إلى ذهني كتاب زرادشت الأول، وخاصة زرادشت نفسه، كنمط، والأحرى أن أقول إنه لم يتبادر لي بل هاجمني وغزاني.

لكي تفهموا هذا النمط الزرادشتي يجب عليكم أولًا أن تعرفوا حالته الفسيولوجية، والتي أسميتها بـ"الصحة الكبرى". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، مجلد السادس، ص ٣٣٧).

يعد هذا الاقتباس مفتاحًا لفهم شخصية زرادشت ودوره في كتاب نيتشه، زرادشت يُمثل نمطًا.

يظهر مصطلح النمط عدة مرات في تأملات نيشته الفلسفية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، يتحدث نيتشه عن نمط الرجل الأعلى (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٠٠)، وعن نمط المُخَلِّص (انظر إلى نفس المرجع، ص ١٩١)، وتحدث أيضًا عن نمط الإنسان عامة (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٦٢٩).

يسمح مصطلح "النمط" لنيتشه بعدم الاضطرار إلى الإجابة على السؤال الفلسفي "ما هو الإنسان؟" بتعريف عام، يُدافع نيتشه عن نفسه ضد محاولات السؤال عن الإنسان بشكل عام قائلًا: "[...] جميع هؤلاء الأشخاص الذين لا يعرفون أنفسهم، يؤمنون بالإنسان المجرد، أي يؤمنون بالخيال [...]" (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٩٣).

يتجنب نيتشه الحديث فقط عن الأفراد، بوصفه للأنماط، ومن خلال التحدث عن البشر كأنماط، يُفلت نيتشه من التقاليد -حتى في تاريخ الفلسفة- التي تنظر إلى الإنسان كفرد وككائن نوعي.

بالمعنى الشامل، يمثل "أي نمط معين للإنسان" مُلخصًا لإمكانية ملموسة، ألا وهي كونه إنسانًا، وتشير صياغة نيتشه لـ"الحالة الفسيولوجية لمثل هذا النمط" إلى أنْ مثل هذه الإمكانية تتحقق عن طريق تفاعل مختلف الظروف الأساسية مع بعضها بعضًا، بما في ذلك الظروف المادية، وربّما نتحدّث اليوم أيضًا عن الظروف البيولوجية والاجتماعية والمجتمعية.

سُلط الضوء على مفهوم "النمط" في إحدى فقرات كتاب "الفجر".

"قدوة"

ما الذي أحبه في ثوقيديدس؟ وما الذي يجعلني أقدره أكثر من أفلاطون؟ إنه يشعر بالفرحة الشاملة لكل ما هو نمطي في الإنسان والأحداث، ويجد أنْ كل نمط يمتلك قدرًا معينًا من العقل الوجيه، هذا ما يسعى لاكتشافه [...] يرى شيئًا عظيمًا في كل الأشياء والأشخاص ويتعامل معهم عن طريق النظر إلى أنماطهم فقط [...] وهكذا تبلغ من خلاله (المفكر الإنسان) ثقافة المعرفة الأكثر حيادية للعالم [أي ثقافة السفسطائيين] ازدهارًا كبيرًا [...]. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ١٥).

حينما يتحدّث نيتشه عن زرادشت كنمط، فإنه يتحدّث عن تنوع مُحتمل في أنماط البشرية، وتوضّح الشخصية الفردية لزرادشت ذلك، ما يُميز زرادشت هو أنْ النمط هنا ليس عبارة عن إمكانية بشرية تم تحقيقها، بل كونه إمكانية بشرية لم يسبق لها مثيل، يدعي نيتشه أنه تعرّض لـ"غزو الإلهام" فلذلك خلق نمطًا جديدًا للإنسان.

الاسم:

من اللافت للنظر منح نيتشه لهذا "النمط الجديد من الإنسان" اسم شخصية تاريخية، أدرج نيتشه زرادشت التاريخي هذا -مؤسس ديانة فارسية قديمة- ضمن سلسلة مثيرة للاهتمام يدعي أنها نوع من معرض الأسلاف الفكري الخاص به:

أنا لست بحاجة للشهرة؛ لأنْ اعتزازي بما لديّ من أصول فكرية يكفيني، أنا أعيش الآن بالفعل ما أثار زرادشت، وموسى، ومحمد، وعيسى، وأفلاطون، وبروتوس، وسبينوزا، وميرابوا، وبداخلي بعض الأشياء التي استغرقت آلاف السنين حتى

تصبح جاهزة، ولم تستطع الخروج إلى النور إلى الآن. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد التاسع، ص ٦٤٢).

قام نيتشه بتدوين ملاحظات حول زرادشت في نسخته من كتاب محاولات الفيلسوف الأمريكي رالف والدو إيمرسون (١٨٠٣-١٨٨٢)، ويمكن العثور هناك أيضًا -كما ذكر في مجلد التعليقات لمونتيناري- على مقطع، وضع نيتشه تحته خط عدة مرات، حيث ذكر اسم زرادشت بهذا المقطع، وكتب نيتشه على هامشه "هذا هو".

وجاء في المقطع الكامل الذي أبرزه نيتشه ما يلي:

تبدو لنا الصور الأكثر مصداقية هي صور الأشخاص العظماء، الذين عندما نراهم للمرة الأولى نشعر بالرهبة والإجلال، كما حدث للحكيم الصيني الذي أُرسل لاختبار جدارة زرادشت، يُخبرنا الفرس أنه عندما وصل الحكيم إلى مدينة بلخ، حدَّد الحاكم غوستاف يومًا، ليجتمع الكهنة الزرادشتيون من كل بلد، وجهز كرسي ذهبي للحكيم الصيني، وبالفعل أتى الجميع، ومن ثم دخل النبي زرادشت إلى وسط هذا الجمع، قال الحكيم الصيني عندما رأه: هذه الهيئة وهذه المشية وهذه الوضعية المهيبة، لا يمكن أن تكذب، ولا يمكن أن يخرج من هذا الشخص سوى الحقيقة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الرابع عشر، ص ٢٧٩).

والمثير للدهشة حقًا في هذا المقطع أن ضيف لم ينبهر بتعاليم زرادشت، بل انبهر بمظهره "رؤيته لأول مرة".

لا يُمكننا الجزم بأنَّ هذا المقطع هو ما حفز نيتشه لاستخدام اسم زرادشت، وقدَّم نيتشه فيما بعد تفسيرات -غير مقنعة- توحي بالإطار التاريخي للبشرية الذي يضع فيه نفسه وتفكيره، وفقًا لاقتباس من كتاب هذا هو الإنسان في فصل "محاولة للنقد الذاتي"، فقد كرَّس نيتشه عمله لبداية خلق مفهوم ملائم للتاريخ:

توجب عليّ الإشادة بزرادشت الفارسي، كان الفرس أول مَن فكروا في التاريخ ككل، سلسلة من التطورات، يرأس كل منها نبي، كل نبي له سوقه، ومملكته منذ ألف سنة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ٥٣).

يقدم نيتشه مرة أخرى بيانًا طويلًا حول مسألة تسمية زرادشت بهذا الاسم في كتابه "هذا هو الإنسان"، وبالمقارنة مع البيان السابق، يُمكننا ملاحظة التحولات الواضحة في اللهجة، وعلى الرغم من اهتمام نيتشه المستمر بالمنظور التاريخي الشامل، إلا أنه هنا -تماشيًا مع أحد المحاور الرئيسية لتأملاته الفلسفية في الثمانينيات- يتعامل مع تاريخ القيم وإعادة التقييم، يُفسّر زرادشت عند نيتشه على أنه "متجاوز للأخلاق"، وعلى النقيض يُفسّر زرادشت التاريخي على أنه "واضع للأخلاق"، ولهذا السبب تحديدًا كتب نيتشه هذا البيان:

لم أسأل، وكان من المفترض أن أسأل عمّا يعنيه اسم زرادشت بالنسبة لي، أي بالنسبة إلى اللاأخلاقي الأول: لأننا على النقيض تمامًا مع كل ما كان يمثله الطابع الفريد لهذه الشخصية الفارسية عبر التاريخ، كان زرادشت أول مَن رأى أنّ الصراع بين الخير والشر هو العجلة المُحركة للأشياء، فترجمة الأخلاق ميتافيزيقيا على أنها قوة، وسبب، وهدف في ذاتها، هي من عمل زرادشت، لقد ابتدع زرداشت هذا الخطأ الشنيع، ألا وهو الأخلاق، وبالتالي عليه أن يكون أول مَن يعترف به، [....] تجاوز الأخلاق من خلال الصدق، وتجاوز الأخلاقي لذاته ليحل في نقيضه، هذا ما يعنيه اسم زرادشت بالنسبة لي. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٦٧).

يفتح هذالاقتباس السابق الباب أمام العديد من التفسيرات الفلسفية للتسمية، ومع ذلك فإنّ المعرفة بطريقة عمل نيتشه تجعل من المثير للاهتمام البحث عن مصادر أدبية أخرى، ويوضّح كل اكتشاف جديد الحافز الفكري الذي سبق تأليف زرادشت.

***

جوانب مُتعدّدة:

"أعتقد أنكم تتساءلون أيضًا" مَن هو زرادشت بالنسبة لنا؟ وماذا يجب أن نُسميه؟ ومثلي، تجيبون عن هذه التساؤلات بأسئلة أخرى.

هل هو واعد؟ أم مُحقق؟ غازٍ؟ أم وريث؟ خريف؟ أم محراث؟ طبيب أم متعافٍ؟

هل هو شاعر؟ أم صادق؟ مُحرر؟ أم مُقيد؟ صالح؟ أم طالح؟" (انظر إلى كتاب

هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الخلاص، ص ١٧٩).

يُشير نيتشه من خلال جملة "تجيبون عن هذه التساؤلات بأسئلة أخرى" إلى تعقيد زرادشت، زرادشت هو شخصية يمكنها أن تُثير كل هذه الأسئلة، وله العديد من الجوانب، تختلف اعتمادًا على مَن ينظر إليها ومن أي زاوية، وهذا يتوافق تمامًا مع نية نيتشه.

ولكن على الرغم من الإلهام الذي يدعيه نيتشه بتصريحات مثل "هاجمني وغزاني [نمط زرادشت]"، فإنّ هذه التعددية لا تحدث بشكل تلقائي، خطط نيتشه جيدًا لشخصيته، وسجل وصفًا عن مكوناتها، يمكن العثور على القائمة التالية ضمن ملاحظاته من عام ١٨٨٣:

عراف

مُدمر

خالق

مُستكشف (البحر)

راقص - ضاحك

طائر- منتصر (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ٥٩٦).

وبعد عام، سجل نيتشه أثناء تحضيره للكتاب الرابع من زرادشت: يوجد في زرادشت تركيبة عظيمة تجمع بين الخالق والعاشق والمدمر.

(انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ٣٦٠).

غالبًا ما تظهر هذه التركيبة المتناقضة -أو غير المألوفة- في تسلسل وتجاور العبارات المتناقضة.

"قال زرادشت: أنت تناقض اليوم، ما تعلمته بالأمس، ولكن اليوم ليس الأمس".
(انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد التاسع، ص ٥٩٨).

شكّل الجمع والتكامل بين هذه التناقضات شخصية زرادشت، فعاش زرادشت بين كل هذه التناقضات غير مبالٍ، كما قصد نيتشه بالضبط.

بعض الأسئلة المطروحة مثل "هل هو شاعر؟ أم صادق"، لا تزال غير محسومة، سوف نناقش هذا فيما بعد، ومع ذلك، يحذر نيتشه على لسان زرادشت من فهم هذه الشخصية على أنها عشوائية تمامًا وقابلة للاستغلال.

يا أصدقائي، لا أريد أن يحدث خلط وارتباك بشأني، فهناك مَن يبشرون بمذهبي في الحياة، وفي نفس الوقت هم دعاة للمساواة وتعاليم العناكب.

يتكلمون عن الحياة بإطراء، بالرغم من جلوسهم في جحورهم مديرين ظهورهم للحياة، أولئك العناكب السامة، فذلك يعني أنهم يريدون بذلك إيذاء الناس. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن العناكب، ص ١٢٩).

لا يتم انشاء جوانب زرادشت المتعددة ببساطة من خلال وضع الصور المشكلة مسبقًا جنبًا إلى جنب فقط، فيمكن العثور على مثال على ذلك في مقدمة الكتاب، حيث يُعيد نيتشه استخدام الصور المشكلة مُسبقًا لشخصية زرادشت لإضفاء المزيد من التعقيد والتنوع عليها، في البداية يتم وصف حدث.

عندما بلغ البهلوان السائر فوق الحبل منتصف طريقه، فتحت البوابة الصغيرة مرة أخرى، وخرج منها فتى مُزين -مثل المهرج- وانطلق بخطى سريعة، ليلحق بالبهلوان: "تقدم أيها الأعرج"، صرخ بها بصوت مريع: "تقدم للأمام أيها الكسول، المهرب، شاحب الوجه!" [....]- ومع كل كلمة كان يقترب منه أكثر فأكثر، وعندما لم تعد تفصله عنه سوى خطوة واحدة، حدث الشيء المروع الذي ألجم الألسنة وأجحظ العيون، صرخ الفتى صرخة شيطانية وقفز فوق البهلوان الذي كان يسبقه، فعندما وجد خصمه ينتصر هكذا، فقد عقله والحبل معًا [...]. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل مقدمة زرادشت، ص ٢١).

بعد ذلك بقليل، يتحول هذا الحدث إلى استعارة، ينصح المهرج زرادشت بمغادرة المدينة: "لترحل الآن عن هذه المدينة، وإلا فإنني سأقفز فوقك غدًا، شخص حي يقفز فوق شخص ميت". (المرجع نفسه، ص ٢٣)

وفي النهاية تتحول تلك الاستعارة إلى صورة له من خلال جملة يقولها زرداشت

لنفسه في نهاية المقدمة، أريد أن أصل إلى هدفي، سأمضي في طريقي الخاص، سأقفز فوق المترددين والمتراخين، لذا دع سيري يكن هلاكهم. (المرجع نفسه، ص ٢٧).

تكتسب شخصية زرادشت المزيد من التعقيد وتصبح متناقضة، حينما يطبق زرادشت صورة "المهرج" على نفسه، فقد أصبح زرادشت الآن، الذي كان فى السابق الشخص الوحيد الذي قدم العزاء للبهلوان الساقط من على الحبل ودفنه بيديه، شخصًا يجعل الآخرين يتعثرون من خلال القفز فوقهم.

وفي الجزء الرابع من الكتاب توجد إشارة أخرى من منظور مختلف، إنّ الإنسان شيء لا بد من التغلب عليه، هناك العديد من الطرق والوسائل للتغلب على الإنسان، لتنظر بنفسك في الأمر إذًا! لكن المهرج وحده هو الذي يفكر: "يمكننا أيضًا القفز فوق الإنسان". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل الألواح القديمة والجديدة، ص ٢٤٩).

إنّ القراءة المتأنية تكشف الشفافية الكاملة للوسائل التي استخدمها نيتشه لخلق مثل هذا التعقيد، يعد كتاب نيتشه شبكة من الإشارات المتعاضدة والإشارات إلى أعمال أخرى، حدّد الكتاب ونمط زرادشت مهمة متابعة هذه الإشارات.

***

الفصل الثالث
الحكيم المُختلف

الملحد:

"الإله مات!" يعد هذا التعجب من أشهر عبارات نيتشه، كان الصراع مع الدين، وخاصة مع المسيحية في كثير من الأحيان، محورًا جوهريًا في كتابات نيتشه، ففي العام الأخير قبل انهياره في تورينو كتب عملًا بعنوان "المسيح الدجال.. لعنة على المسيحية".

وكذلك زرادشت دائمًا ما يعود إلى هذا الموضوع، ويرغب في أن يُطلق عليه لقب "ملحد".

وعندما أنادي فيهم: "اقتلوا كل الشياطين الجبناء في داخلكم، الذين يحبون النحيب وبسط أيديهم للتعبد" فهم يصرخون: "زرادشت مُلحد".

وأكثر الصارخين بذلك هم معلمو الاستسلام، وهؤلاء بالضبط هم مَن أرغب في الصراخ في آذانهم قائلًا: نعم! أنا زرادشت المُلحد!

[....] هيًا! هذه هي موعظتي التي ألقي بها في آذانهم: أنا زرادشت المُلحد، الذي يتحدّث إليكم هنا، مَن منكم مُلحدًا أكثر مني؟ فسأكون سعيدًا بالتّعلُّم منه؟" (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الفضيلة المصغرة، ص ٢١٥).

"الموعظة" لها جهة محددة، فهي موجهة خاصة لآذان "معلمي الاستسلام"، لمعلمي الدين، ومؤسسي الأديان، والأنبياء، ورجال الدين، وأولئك مَن يرغب زرادشت في مواجهتهم بإعلان إلحاده، ويظهر لهم صدقه كردع لكراهيتهم.

[...] إنهم يكرهون [الشعراء المدمنين على الله] بشدة العارف وأصغر الفضائل، التي تُسمى بالصدق. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن العالم الآخر، ص ٣٧).

ومع ذلك، فإنّ معصية زرادشت هي أكثر بكثير من مجرد انتقاد للدين.

يُذكر اقتباس "مات الإله" في فصل من فصول كتاب "العلم المرح" يحمل عنوان

"الإنسان المجنون"، يقال إنّ الفيلسوف القديم ديوجين بحث في وضح النهار عن البشر في ساحة سوق أثينا المزحمة باستخدام فانوس، وعلى غراره، يبحث هذا الإنسان المجنون عن الله، توجد نسخة سابقة من هذا الاقتباس، يحمل فيها هذا الرجل المجنون اسم زرادشت. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الرابع عشر، ص ٢٥٦)، لذلك يمكن أن يُساعدنا هذا الاقتباس من كتاب "العلم المرح" على جمع جوانب "ألحاد زرادشت" الخاصة، الرجل المجنون.

هل سمعتم عن ذلك الرجل المجنون الذي بعد أن أضاء فانوسه في وضح النهار، صار يركض في ساحة السوق، ويصرخ بدون انقطاع: "إنني أبحث عن الإله، إنني أبحث عن الإله"، ونظرًا لوجود الكثير ممّن لا يؤمنون بالإله، فقد تسبب في الكثير من الضحك، قال أحدهم: هل فقدناه؟ وقال آخر: هل ضاع مثل الطفل؟ هل يختبئ في مكان ما؟ هل هو خائف منّا؟ هل أبحر؟ هل هاجر؟ هكذا كانوا يصيحون ويضحكون في نفس الوقت، سارع المجنون إلى وسطهم واخترقهم بنظراته، وصاح فيهم: "أين الإله؟ أنا سأقول لكم! لقد قتلناه- أنتم وأنا! نحن جميعًا قتلته! ولكن كيف فعلنا ذلك؟ كيف استطعنا أن نفرغ البحر؟ مَن أعطانا الإسفنج لمحو الأفق بأكمله؟ ماذا فعلنا بإبعادنا هذه الأرض عن شمسها؟ إلى أين تتحرك الآن؟ إلى أين تقودنا حركتها؟ أبعيدًا عن كل الشموس؟ ألسنا نسقط باستمرار؟ إلى الخلف، وإلى الجانبين، وإلى الأمام، ألسنا نسقط في كل الاتجاهات؟ هل ما زال هناك صعود وهبوط؟ ألسنا نتجول في الفراغ اللامتناهي؟ ألسنا نشعر بنفس الفراغ؟ ألم يصبح الجو أكثر برودة؟ ألا يأتي إلا الليل والمزيد من الليل فقط؟ أليس من الضروري أن تضاء الفوانيس في وضح النهار؟ ألا نسمع شيئًا من ضجيج حفار القبور وهم يدفنون الإله؟ هل ما زلنا لا نشم رائحة الانحلال الإلهي؟ فالآلهة يمكنها الانحلال أيضًا، مات الإله وسيظل الإله ميتًا، ونحن الذين قتلناه! فكيف سنعزي أنفسنا ونحن أكبر القتلة؟ إن أقدس وأقوى ما شهده العالم على الإطلاق نزف حتى الموت أسفل سكاكيننا، فمَن سيمسح هذا الدم عنّا؟ ما هي المياه التي يمكنها تطهيرنا؟ أية احتفالات كافرة وأية ألعاب مقدسة يجب علينا أن نخترعها؟ أليس عظم هذا الفعل يفوق طاقتنا؟ ألا يجب أن نصير نحن أنفسنا آلهة كي نبدو جديرين بهذا الفعل؟ لم يحدث أبدًا فعل أعظم من هذا- وكل مَن سيولد بعدنا سينتمي، بمقتضى هذا الفعل، لتاريخ أسمى ممّا كان عليه التاريخ حتى الآن".

وهنا سكت الرجل المجنون وتأمل مستمعيه مرة أخرى، وهم بدورهم سكتوا وصاروا ينظرون إليه بدهشة، وأخيرًا ألقى فانوسه على الأرض فتحطم وانطفأ، قال حينها: "لقد جئت قبل أواني، لم يحن وقتي بعد"، وبعد هذا الحدث المهيب راح يتجول ويسافر، ولكنه لم يبلغ آذان الناس بعد، يستغرق البرق والرعد بعض الوقت، ويستغرق ضوء النجوم وقتًا، والأفعال تستغرق وقتًا، حتى بعد فعلها، لترى وتُسمع، ومثل هذا الفعل أبعد عنهم من أبعد النجوم، ومع ذلك فقد فعلوه! لا يزال يقال إنّ الرجل المجنون اقتحم كنائس عديدة في نفس اليوم وراح يُرتل ترنيمة الموت "الراحة الأبدية للإله"، وعندما طرد خارجًا وتم إجباره على تبرير سلوكه لم يكف عن تكرار: ما فائدة هذه الكنائس إذا لم تصبح قبورًا ومقابرًا للإله؟ (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، ص ٤٨).

لا يهدف الحديث الذي طرحه "الرجل المجنون" في المقام الأول إلى زعزعة الإيمان بالله ولا إلى انتقاد الدين، تجد عملية "البحث عن الإله" مشاهدين مستمتعين بالموقف، لم يعودوا يؤمنون بالإله منذ زمن بعيد، "مات الإله" ليست عبارة استفزازية في حد ذاتها، بل هي حقيقة مقبولة منذ وقت طويل، إنّ المثير للجدل هو اتهام "الرجل المجنون" لإخوانه ولنفسه بالقتل، ويتسأل المتهم والشريك على حد سواء كيف فعلنا ذلك؟ [...] ماذا فعلنا، [....]؟". يتساءلون من ناحية عن مجريات الجريمة، ومن ناحية أخرى عن مدى خطورة هذه الجريمة.

"لم يحدث أبدًا جريمة أعظم من هذه"، يتضح أنّ هذا التعبير يحمل مغزي ثنائي، جريمة قتل الإله كانت الجريمة الأكثر خطورة، ولكن هذه الجريمة كانت عظيمة واحتاجت إلى مرتكبين مستحقين لها.

تترتب على هذه الجريمة عواقب تؤثر على مرتكبيها، فبقتلهم الإله، يتجردون من كل معانيهم وقيمهم السابقة.

يحاول "الرجل المجنون" أن يجعل هذا "الحدث المهيب" مرئيًا، ولكنه يتساءل أيضًا كيف أصبح من الممكن قتل الإله، والتخلُص من المعتقدات الدينية أو تشويهها.

"[...]- الآلهة يمكنها الانحلال أيضًا" عمل نيتشه منذ كتابه "إنسان مفرط في إنسانيته" على فهم الآلهة والأديان كأحداث تاريخية وإنسانية، لوصف عملها

وأهميتها.

يظهر هنا الجانب المزدوج من نهج نيتشه، حيث يحاول نيتشه من خلال معنى جملة "عظمة هذا الفعل [قتل الله]" إنصاف الدين وأهميته، دون ترك أي مجال للشك في أن الأديان تحتوي على الحقيقة، الحقيقة في الدين.

من المؤكد أنّ عصر التنوير لم يكُن مُنصفًا في حكمه على أهمية الدين، ومن المؤكد أيضًا أنّ ردة الفعل اللاحقة والمناهضة للتنوير، قد انحرفت بدورها عن الإنصاف، بما جاء فيها من تعامل بحب، بل بولع مع الأديان، والاعتراف لها بالفهم الأعمق للعالم، الفهم الذي سيخلع عن العلوم الرداء العقائدي، كي نتوصل إلى الحقيقة في شكل خالٍ من الخرافات، [...] كان شوبنهاور يفضل تبجيل الحقيقة، كما عهدنا منه دومًا، وكانت كلمته، ما كان لدين أبدًا، لا بشكل مباشر ولا غير مباشر، لا كمعتقد، ولا كمجاز، أن يكون منطويًا على الحقيقة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثاني، ص ١٠٩).

يتجلى الجانب المزدوج المذكور أيضًا بتأثير مختلف في اقتباس يعود إلى وقت نشأة زرادشت، لقد سهلتم الأمر على أنفسكم، أيها الملحدون!

حسنًا، قد يكون الأمر كما تقولون، إن الناس قد خلقوا الإله، فهل هذا سبب كافٍ لعدم الاهتمام به بعد الآن؟ [...]. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد التاسع، ص ٦١١).

إنّ موت الإله هو أحد الجانبين المختلفين اللذان توضحهما عبارة "ولكن كيف فعلنا ذلك؟". والجانب الثاني يتعلق بالجناة، لم يتم ذكر دوافعهم في الاقتباس الموجود في كتاب "العلم المرح"، ولكن ذُكر أنهم لم يكونوا مُدركين لما يفعلونه، "مثل هذا الفعل أبعد عنهم من أبعد النجوم، ومع ذلك فقد فعلوه!".

وبالنهاية، قاموا بالتقليل من أهمية هذا الحدث بالنسبة لأنفسهم أيضًا، فإذا كان بإمكانهم أن يقتلوا الإله -النقطة المرجعية الشاملة التي تُشكّل أساس جميع القيم حتى الآن- فإنّ هذا سيؤثر بالطبع على فهمهم لأنفسهم: "ألا يجب أن نصير نحن أنفسنا آلهة كي نبدو جديرين بهذا الفعل؟ لم يحدث أبدًا فعل أعظم من هذا، وكل مَن سيولد بعدنا سينتمي، بمقتضى هذا الفعل، لتاريخ أسمى مما كان عليه التاريخ

حتى الآن".

تظهر الجوانب المطروحة في الاقتباس المذكور على زراشت بكل وضوح، لكن ربما تكون الفروق الدقيقة بالإضافة إلى ما يقال بشكل عابر هي التي تجعل قراءة المقاطع الموجودة في زرادشت تستحق العناء.

إحدى هذه الفروق الدقيقة والأكثر وضوحًا في زرادشت هي المحادثة التي أجراها زرادشت مع الناسك بعد وقت قصير من مغادرته الأولى لعزلته، حيث يوجد هنا أيضًا جانبًا آخر من موت الإله لم يتم اكتشافه بعد بالكامل، فيشرح الناسك أنه أحب الناس "أكثر من اللازم"، وأنه شعر بخيبة الأمل، عندما عاد وحيدًا إلى الغابة مع إلهه: "الآن أحب الله، لكنني لم أعد أحب البشر، الإنسان شيء غير كامل بالنسبة لي، سيفتك بي حبي البشر". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل مقدمة زرادشت، ص ١٣).

Telegram:@mbooks90

يحاول الناسك منع زرادشت من "السقوط"، أي من ذهابه للبشر، لا تذهب إلى البشر وابقَ هنا في الغاب، اذهب إلى الحيوانات بدلًا من ذلك، لِمَ لا تكُن مثلي؟ دبًا بين الدببة، طائرًا بين الطيور؟

سأل زرادشت: وماذا يفعل الناسك في الغابة؟

أجاب الناسك: أنظم الأناشيد وأغنيها، وعندما أنظم هذه الأناشيد، أضحك وأبكي وأزمجر، هكذا أمجد الإله.

أنا أمجد الإله بالغناء والبكاء والضحك والزمجرة، وأنت، أية هدية جئت لكي تمنحنا إيّاها؟

وعندما سمع زرادشت هذه الكلمات، سلم على الناسك قائلًا: وهل لديّ شيء يُمكنني منحك إيّاه؟ بل دعني أذهب بسرعة لكيلا أسلبك شيئًا ما.

وهكذا افترقا عن بعضهما، ومضيا كل في طريقه ضاحكين، كما يضحك اثنين من الأطفال.

وحينما وجد زرادشت نفسه وحيدًا، تحدّث إلى قلبه قائلًا:

هل يمكن أن يكون ذلك ممكنًا؟ هذا الناسك العجوز لم يسمع بعد في غابته أنّ

الإله مات! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل مقدمة زرادشت، ص ١٣ وما يليها).

إنّ دهشة زرادشت تؤكد مرة أخرى نتيجة موت الإله -التي أعلنها الرجل المجنون- وذكر ذلك في بداية الكتاب كأمر طبيعي يشير إلى المحور الرئيسي فيه، ألا وهو عرض عواقب موت الإله.

تم إزالة الاتهام الذي طرحه "الرجل المجنون"، فيبدو زرادشت في البداية هادئًا، وليس ملحدًا تبشيريًا، هو نفسه يواجه عواقب موت الإله، ويحاول إيجاد حل ممكن بعد انهيار كل الأسس الدينية والميتافيزيقية، إنه يسمح للناسك بأن "يغني ويبكي ويضحك ويزمجر"، ويفترق كلاهما بسعادة، دون أن يرغب زرادشت في "أخذ" إله الناسك.

وعلى الرغم من عدم وجود الاتهام، فإنّ موت الإله يظل جريمة قتل في زرادشت، ومع ذلك يمكننا ملاحظة اختلاف مهم، في زرادشت تصبح شخصية قاتل الإله هي أبشع الآدميين، حذف نيتشه مقطعًا يصف فيه زرادشت نفسه بأنه قاتل الإله. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الرابع عشر، ص ٣٠٩).

***

أبشع الآدميين:

[...] وعندما انحنى الطريق مرة أخرى حول جدار صخري شاهق، تغيّر المشهد فجأة، وإذ بزرادشت يطأ مملكة الموت، ظهرت المنحدرات الصخرية السوداء والحمراء منتصبة هناك، لا عشب، لا شجر، ولا تغريد الطيور، إنه وادٍ يتجنبه جميع الحيوانات، بما في ذلك الحيوانات المفترسة، إلا نوعًا من الثعابين الخضراء القبيحة والسمينة تأتي إلى هنا -عندما تصبح كبيرة في السن- لتموت.

لذلك سمى الرعاة هذا الوادي بـ"موت الأفاعي"، غرق زرادشت في ذكرى سوداء، لأنه شعر وكأنه وطأ هذا الوادي من قبل، وأجثمت عليه الكثير من الأفكار الثقيلة، حتى أن خطواته صارت أثقل فأثقل ثم توقف تمامًا. وظل ثابتًا في مكانه، ولكن عندما فتح عينيه، رأى شيئًا جالسًا على قارعة الطريق، له هيأة الإنسان ولكنه لا

يشبه الإنسان، شيء لا يمكن وصفه، وفجأة شعر زرادشت بالخجل الشديد لكونه نظر بعينيه إلى مثل هذا الشيء، احمرت وجنتاه بشدة حتى وصلت إلى منابت شعره الأبيض، ومن ثم أبعد نظره عن هذا الشيء وحرّك قدميه ليبتعد عن هذا المكان الموحش، لكن هذه الوحشة الميتة أصبحت صاخبة فجأة، فتصاعدت من الأرض غرغرة وحشرجة، مثل ما تحدثه المياه ليلًا وهي تغرغر وتتحشرج داخل أنبوب مسدود، وأخيرًا تحولت تلك الضجة إلى صوت بشري وكلام بشري:

"زرادشت! زرادشت! لتخمن لي حل هذا اللغز، تكلم، قل لي ما هو الانتقام من الشاهد؟

أناشدك ألا تتقدم أكثر، فالأرض هنا زلقة، احذر ألا تنكسر ساق كبريائك هنا!

أتظن أنك حكيم، أيها الزرادشت الفخور! لتحل إذا هذا اللغز، اللغز الذي هو أنا! فلتقل لي إذًا من أنا؟!

وعليكم أن تتصوروا الحالة التي أصبح عليها زرادشت بعد سماعه لهذه الكلمات، لقد تملكته الشفقة، وهوى مرة واحدة مثل شجرة بلوط صمدت طويلًا أمام العديد من ضربات الحطابين، فتهوى بكل ثقلها فجأة، ممّا يُثير رعب الحطابين أنفسهم، ولكنه سرعان ما نهض عن الأرض، وأصبح وجهه قاسيًا للغاية.

قال بصوت عميق: "أنا أعرفك جيدًا، أنت قاتل الإله! دعني أذهب، أنت لم تستطع أن تتحمّل الشخص الذي رآك، والذي كان يراك دائمًا وينفذ إلى أعماقك يا أبشع الآدميين، وهكذا انتقمت لنفسك من هذا الشاهد".

هكذا تكلم زرادشت وأراد الرحيل، لكن ذلك الكائن الذي لا يوصف أمسك بطرف ثوبه وراح يغرغر من جديد بحثًا عن الكلمات، وقال أخيرًا:

- ابقَ، ابقَ هنا، لا ترحل، لقد خمنت أي فأس طرحتك على الأرض، السلام عليك يا زرادشت، لتقف على قدميك مرة أخرى.

لقد خمنت، وأنا أعلم جيدًا، كيف يشعر الرجل الذي قتله، قاتل الإله، لا ترحل، اجلس هنا معي، ولن يكون ذلك عبثًا. [....]

لكنك مررت بي بصمت، ورأيت كيف أنك تحمر خجلًا: هكذا عرفت أنك أنت

زرادشت.

أي شخص سواك كان سيعطيني صدقة أو نظرة أو كلمة تعبّر عن شفقته، ولكنني -كما خمنت أنت- لست متسولًا بما فيه الكفاية.

إنني أغنى من أحتاج إلى هذه الصدقة، غني بالأشياء العظيمة والأشياء الفظيعة، بأبشع الأشياء، وبأكثر الأشياء التي لا توصف، لقد كان خجلك إكرامًا لي يا زرادشت.

بعناء شديد تمكنتُ من الخروج من حشود المُشفقين، كي أجد اليوم الإنسان الوحيد الذي يعلم أنّ "الشفقة تطفلية"، أن أجدك أنت يا زرادشت.

[...] ولكن لتُحذر نفسك أيضًا من شفقتك، لأنّ الكثيرين في طريقهم إليك، الكثير من المتألمين، والمشككين، واليائسين، والغرقى.

أنا أيضًا أحذرك مني، فقد خمنتَ أفضل ألغازي وأسوأها، نفسي وما فعلته، أنا أعرف الفأس الذي طرحك صريعًا، لكن هو كان عليه أن يموت، لقد رأى بعينيه ما رأى الجميع، رأى أعماق الإنسان ودوافعه، كل قبحه، وكل عيوبه الدفينة.

لم تكُن شفقته تعرف الخجل، كان قابعًا في زاوياي الأكثر قذارة، كان على هذا الشخص الأكثر فضولًا وتطفلًا أن يموت.

لقد رآني دائمًا، أردتُ الانتقام من مثل هذا الشاهد، أو أن أكف أنا عن الحياة.

الإله الذي رأى كل شيء، بما في ذلك الإنسان، كان على هذا الإله أن يموت، لا يمكن للإنسان أن يتحمّل أن يكون مثل هذا الشاهد حيًا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل أبشع الآدميين، ص ٢٢٧ وما يليها).

قاتل الإله معروف هنا أيضًا، ولكن على خلاف حالة "الرجل المجنون"، فإنّ المُدعي غائب وعنصر الاتهام مفقود أيضًا، زرادشت وقاتل الإله شخصان مختلفان، تُثير تجربة الديجافو فكرة أنّ زرادشت من الممكن أن يكون له علاقة بالفعل بالقاتل أو حتى بقتل الإله: [...]، غرق زرادشت في ذكرى سوداء، لأنه شعر وكأنه وطأ هذا الوادي من قبل، وأجثمت عليه الكثير من الأفكار الثقيلة: [...] (المرجع نفسه).

بالإضافة إلى ذلك، يمكننا العثور أيضًا على المزيد من الجوانب المشتركة:

١- ثقل الجريمة، والتي تنعكس بشكل فظيع على الجاني: "لقد خمنت كيف يشعر الرجل الذي قتله".

٢- عظمة الجريمة: "إنني أغنى من أحتاج إلى هذه الصدقة، غني بالأشياء العظيمة والأشياء الفظيعة، بأبشع الأشياء، وبأكثر الأشياء التي لا توصف".

٣- زيف الأديان (زيف المسيحية خاصة): "والحقيقة تعني اليوم ما قاله الواعظ الذي نشأ بينهم أيضًا، ذلك القديس الغريب والمدافع عن الناس البسطاء، والذي قال على نفسه: "أنا الحق". [....]

وهل رد أحدًا بأدب على هذا الشخص الذي لم يعرف التواضع أبدًا؟ أمّا أنت يا زرادشت فقد مررت به مرور الكرام وقلت: لا، لا، وألف لا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل أبشع الآدميين، ص ٣٣٠).

ولكن من المنظور الجديد، يوجد في المقدمة شيء لم يوجد في نص "الراجل المجنون"، حيث يذكر النص هنا دافع القتل: أنت لم تستطع أن تتحمّل الشخص الذي رآك، والذي كان يراك دائمًا وينفذ إلى أعماقك يا أبشع الآدميين! وهكذا انتقمت لنفسك من هذا الشاهد. (المرجع نفسه، ص ٣٢٨)

[....] الإله الذي رأى كل شيء، بما في ذلك الإنسان: كان على هذا الإله أن يموت، لا يمكن للإنسان أن يتحمّل أن يكون مثل هذا الشاهد حيًا. (المرجع نفسه، ص ٣٣١)

إذًا، فإنّ الدافع الظاهري للقتل هو خجله من مشاهدة الإله لبشاعته، ولكن لماذا هو بشع لتلك الدرجة؟ من الواضح أنّ القتل ليس هو ما جعله هكذا، لأنّ البشاعة سبقت وجود الدافع، سيكون من المنصف أن نفترض أنّ نيتشه اختار هذا الوصف عن غير قصد، يخلق مصطلح البشاعة إشارات تشجع على البحث عن المزيد من التفسيرات.

قرار خطير:

إنّ القرار المسيحي القاضي بأنّ العالم سيئًا وقبيحًا، جعل العالم حقًا مكانًا سيئًا وقبيحًا. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث،

ص ٤٨٥).

يتهم نيتشه المسيحية خاصة، والأديان والتكهنات الميتافيزيقية عامة مرارًا وتكرارًا باستغلال الآخرة ضد الدنيا، والمثل العليا ضد الواقع الدنيوي.

[...] كان مفهوم الإله حتى الآن أكبر اعتراض على الوجود، نحن ننكر الإله، وننكر مسؤوليتنا عن الإله، بهذه الطريقة فقط يمكننا تحرير هذا العالم. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٩٧).

تضمن التفكير المماثل موضوعًا محوريًا في كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثاني، من ص ١٠٧ إلى ١٤٠).

إنَّ المثير للاهتمام هنا هو تجاوز نيتشه النقد العقلاني البحت للدين، وارتكاز مبرراته على ما يُسميه بـ"الذوق"، ضد المسيحية.

منذ الآن لن تكون مبرراتنا هي مَن تقرر ضد المسيحية، بل أذواقنا. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٤٨٥).

تناول نيتشه مصطلح "الذوق" عدة مرات في كتاباته، يعتبر نيتشه أنَّ الذوق هو تعبير عن الشخصية بأكملها، والتي تعبّر عن أصلها وتكوينها الفسيلوجي من خلال الذوق.

الذوق: إنه الوزن والميزان والوازن نفسه كذلك، وويل لكل كائن حي أراد العيش دون صراع حول الوزن والميزان والوازن. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الساميين، ص ١٥٠).

يجسد كل "نمط بشري" تقييمات معينة للذوق، هي وحدها من يمكنها تبرير الانتقادات الموجهة للأديان الحالية بشكل كافٍ، إنَّ الحجج العقلانية لا تتعمق في الأديان بما فيه الكفاية.

لا بد للناس أن يفهموا ما أحاول الوصول إليه، وهو أن إيماننا بالعلم لا يزال وسيبقى مرتكزًا على اعتقاد ميتافيزيقي، وأننا نحن الذين نبحث اليوم عن المعرفة، نحن الملحدون والمناهضون للميتافيزيقا، ما زلنا نستمد نارنا من اعتقاد عمره آلاف

السنين، ذلك الاعتقاد المسيحي، والذي كان أيضًا اعتقاد أفلاطون، الاعتقاد بأنّ الإله هو الحقيقة، وبأن الحقيقة إلهية. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٥٧٧).

عبر نيتشه أيضًا عن هذه الفكرة في زرادشت عدة مرات، فعبّر عن هذه الفكرة على لسان -من بين جميع البشر- البابا الأخير، الذي أصبح عاطلًا بعد موت الإله: "يا زرادشت، إنك أكثر تقوى ممّا تعتقد، ورغم كفرك هذا، إلا أنه يوجد إلها بداخلك هو الذي أرشدك للكفر بالآلهة". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل العاطل، ص ٣٢٥).

بهذه الكلمات يشير البابا، الخبير في مثل هذه الأمور، إلى أنّ أحكام زرادشت المتعلقة بالذوق وإعادة التقييم تستند على مبادئ عميقة بقدر ما تستند الأديان على مبادئها. ومن أفكار نيتشه المهمة هي أنّ الأديان وسطاء أقوياء لوجهات النظر والقيم، والتي تخضع في حد ذاتها للمتطلبات الفسيولوجية لمؤسسي الأديان ومشرعيه.

[...] هكذا تكلم زرادشت، وهو يخترق أفكار البابا ودوافعه الخفية بنظراته، وأخيرًا تكلم هذا الأخير: إنّ الذي أحبه كثيرًا وآمن به بشدة، هو أكثر مَن عانى من فقده الآن، أترى، أنا نفسي الآن الشخص الأكثر إلحادًا بيننا نحن الاثنين، ولكن مَن يستطع أن يفرح بذلك. (المرجع نفسه، ص ٣٢٣).

[...] هناك ذوق جيد في التقوى أيضًا، وهذا الذوق هو الذي تكلم أخيرًا: ليبتعد عنّا هذا الإله ويتنح جانبًا، "من الأفضل ألا يوجد إله، وأن يصنع المرء مصيره بنفسه، من الأفضل أن يكون المرء أحمقًا، ومن الأفضل أيضًا أن يكون المرء إله نفسه".

صاح البابا بعدما صعقته هذه الكلمات: يا زرادشت، إنك أكثر تقوى ممّا تعتقد، ورغم كفرك هذا، إلا أنه يوجد إله بداخلك هو الذي أرشدك للكفر بالآلهة.

أليست تقواك نفسها هي التي باتت تمنعك من الإيمان بإله واحد؟ وسوف يقودك صدقك اللامتناهي إلى ما وراء الخير والشر!

انظر ماذا ينقصك؟ لديك عينان وأيدي وفم، مخصصة للمباركة منذ الأزل، إذ

ليس باليد وحدها يبارك الإنسان. [...] (المرجع نفسه، ص ٣٢٤).

تظهر دراما الخطاب الاتهامي للرجل المجنون، الذي حاول توعية إخوانه بالعواقب الرهيبة لموت الإله، هنا في حزن البابا: "مَن ذا الذي سينزع عنك حزنك (البابا)؟ فأنا (زرادشت) أضعف من أن أقدر على فعل ذلك". (المرجع نفسه، ص ٣٢٥).

إنّ تجارب نيتشه الخاصة تتمثل في إلحاد زرادشت الواضح، وحزن البابا على موت الإله، يكتب ابن القس في إحدى المقالات عن سيرته الذاتية: "رأيت الإله في مجده". (انظر كتاب إلى الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثامن، ص ٥٠٥).

وبالإضافة إلى الاقتباس عن الرجل المجنون، توجد العديد من النصوص الأخرى التي تعكس الشعور المؤقت بالضياع واليأس بسبب فقدان هذا الإله، وحتى كتاب "المسيح الدجال : لعنة على المسيحية" يحتوي على فقرات تكاد تكون معدومة تتحدّث عن المسيح بكلام مُحبب.

مات هذا "المبعوث الصالح" مثلما عاش، ومثلما علّم، ليس "لينقذ الناس" بل ليبين لهم كيف ينبغوا أن يعيشوا، الممارسة هي ميراثه الذي تركه للبشرية، سلوكه أمام القضاة، أمام الجنود، أمام المتهمين والمشتكين عليه، وأمام كل أنواع الافتراء والازدراء، وبالطبع سلوكه أمام الصليب.

إنه لا يقاوم، ولا يدافع عن حقوقه، ولا يتخذ أية خطوة تبعده عن الموت بل إنه يستدعيها ويتضرع ويعاني، ويحب أولئك الذين يسيئون إليه، كلماته الموجهة إلى اللص على الصليب تحتوي على الإنجيل كله، قال اللص عنه: حقًا كان رجلًا إلهيًا، ابنًا للإله بحق.

أجاب المُخلص: إذا آمنت بهذا بحق، فإنك ستكون في الجنة، وستكون أيضًا ابنًا للإله.

إنه لا يدافع عن نفسه، ولا يغضب، ولا يحمّل أحدًا المسئولية، لم يقاوم الشرير أبدًا، بل أحبه دائمًا". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٢٠٧).

الاشمئزاز:

"أنا زرادشت، المُدافع عن الحياة، المُدافع عن المُعاناة، المُدافع عن الدورة الأبدية، أدعوك يا أفكاري العميقة؛ لكي تباركيني، يا لسعادتي، ها أنت قادمة، أنني أسمعك، عمقي السحيق يتكلم، لقد كشفت الغطاء عن أقصى أعماقي، باركيني، هيّا أعطيني يدك، دعي ذلك، هاها! قرف، قرف، قرف، يا لشقائي". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل المتعافي، ص ٢٧١).

إنّ اشمئزاز زرادشت ليس بالأمر الهين إطلاقًا، يتعلق الأمر بإحدى أفكاره المركزية، "الأكثر عمقًا"، يستحضر زرادشت هذه الأفكار بالطريقة نفسها التي يتم بها استدعاء الروح من قبل سيدها؛ فيضفي الشرعية على استدعائه من خلال ذكر اسمه وألقابه، ترتبط هذه الألقاب بمجموعة من الأفكار المركزية في زرادشت مثل: اللامركزية الراديكالية، أي إنكار وجود أي عالم آخر (المُدافع عن الحياة، المُدافع عن المُعاناة)، والعودة الأبدية (المُدافع عن الدورة الأبدية)، يأمر زرادشت الأفكار الأكثر عمقًا بالظهور، وعند ظهورها، ينشأ الاشمئزاز بين صيحات التعجب "باركيني" و"يا لشقائي".

اجتاح هذا الاشمئزاز زرادشت بعنف، لدرجة أنه سقط وكأنه "جثة هامدة"، واضطر إلى التعافي لمدة سبعة أيام كاملة، ومن ثم تغلّب زرادشت على هذا الاشمئزاز بالكامل.

وأخيرًا، بعد مرور سبعة أيام، جلس زرادشت على سريره، وأخذ تفاحة وردية في يده، وقرّبها من أنفه، فوجد رائحتها جميلة. (المرجع نفسه، ص ٢٧١).

أحد الجوانب المركزية لزرادشت هو شعوره بهذا الاشمئزاز المُفرط، وتغلبه عليه أيضًا: [...واعظ الجبل هو مَن يتحدّث] هذا هو الإنسان الذي لا يعرف الاشمئزاز، هذا هو زرادشت نفسه، الذي تغلب على الاشمئزاز العظيم، هذه عين زرادشت، وهذا فمه، وهذا قلبه.

[...] قال زرادشت وهو يقاوم حنانه: لا تتحدّث عني أنا أيها الرجل الغريب واللطيف، بل حدثني عن نفسك أولًا [...] (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن المتسول طوعًا، ص ٢٣٤).

زرادشت، "التغلب على الاشمئزاز العظيم"، ما مصدر هذا الاشمئزاز؟ وإلى ماذا يشير؟ قال زرادشت قبل تعرّضه لهذا الاشمئزاز العظيم: لقد تساءلت ذات مرة، وكدت أن أختنق بسؤالي: هل الحياة في حاجة إلى الرعاع أيضًا؟ [...]

ليس حقدي هو من التهم حياتي بنهم، بل اشمئزازي! آه، كثيرًا ما سئمت من هذا العقل، حينما وجدت الرعاع ذوي عقول أيضًا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الرعاع، ص ١٢٥).

تأثّر موقف زرادشت تجاه الرعاع بنظرته تجاه الوجود نفسه: "اشمئزازي هو الذي التهم حياتي بنهم"، يمثل هذا الموقف ما يسميه نيتشه في كتابه "هذا هو الإنسان" بـ"الاشمئزاز من البشر"، لا يشعر زرادشت بهذا الاشمئزاز بشكل دائم، فهو يعرف أيضًا حب الناس، والشفقة عليهم، إنّ اشمئزاز زرادشت من الناس هو الجانب المُقابل من محبته الشخصية للبشر، ويتضح سبب ونقطة البداية لهذا الحب الخاص بالبشر، إنّ أعظم ما في الانسان هو كونه جسرًا لا هدفًا، وأكثر ما يمكن أن يغدو جديرًا بالحب في الإنسان هو كونه معبرًا وزوالًا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل مقدمة زرادشت، ص ١٦).

من وجهة نظر نيتشه، يُشكّل كل من القبح والخسة اليوميين، بالإضافة إلى المُعاناة والانكسارات الحياتية، الطبيعة الناقصة وغير مثالية للكائن البشري، ومن المُثير للاهتمام أنّ هذا النقص هو في الواقع سبب الحب المحدد للبشر وفي نفس الوقت سبب الاشمئزاز منهم، وهذا ما وصفه نيتشه تحديدًا زرادشت، وبينما يتغلب زرادشت على اشمئزازه، يتغلب أيضًا على حبه، وأخيرًا على شفقته، وهذا ما يحدث في الصفحة الأخيرة من كتاب هكذا تكلم زرادشت، يعلق نيتشه على هذا التطور، يعد ما حققه زرادشت عرضًا تقديميًا لمنظور جديد يفهم فيه الإنسان نفسه كتحدٍ فني، أو كمادة للكمال، وفي موضع آخر، حدّد زرادشت بدقة قدر الإمكان ما يعنيه "الإنسان" بالنسبة له، فهو ليس موضوعًا للحب ولا موضوعًا للشفقة، كما تمكن من السيطرة على اشمئزازه من البشر، وأصبح الإنسان بالنسبة له مجرد مادة خام، أو حجر قبيح يحتاج إلى نحات. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٤٨).

تفاقم فكرة العودة الأبدية من اشمئزازه من البشر، وينهار السعي نحو خلاص

الذات بمعنى التقدم نحو الكمال أكثر من أي وقت مضى.

إنّ شبكة العلل التي ارتبط بها ستعود مجددًا، وستبعثني معها من جديد، فأنا نفسي جزء من علل العودة الأبدية. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل المتعافي، ص ٢٧٦).

تعود الأشياء الناقصة كناقصة، تمامًا كما تعود الأشياء المكتملة كمكتملة، الآن فقط تحول الاشمئزاز من القبح، الذي لم يعد يمكن التغلب عليه بأي طريقة، إلى اشمئزاز من الوجود، إنّ أعظمهم ضئيل جدًا بالنسبة لي، وهذا هو سبب اشمئزازي من البشر، عودة أبدية لهؤلاء البشر الحقراء، هذا هو مصدر اشمئزازي من الوجود بأسره، آه، قرف، قرف، قرف، هكذا تكلم زرادشت وهو يتنهد ويرتعد بسبب تذكره لمرضه. (المرجع نفسه، ص ٢٧٤).

***

إثبات:

عشق القدر **Amor fati**: ليكن ذلك حبي من الآن فصاعدًا، أنا لا أريد شن حرب على القبح، لا أريد أن أتهم أحدًا، ولا حتى المتهمين أنفسهم، سيصبح بُعد النظر منفاي الوحيد، وفي المُجمل أتمنى أن أكون من الذين يستجيبون بنعم فقط في يوم من الأيام. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٥٢١).

يتحدّث نيتشه عن نفسه، ويحاول عرض هدفه ومقصده من شخصية زرادشت في الكتاب الخامس الملحق بكتاب "العلم المرح" عام ١٨٨٧ -أي بعد كتابة زرادشت- [....] هكذا تكلم زرادشت قائلًا: لا أتهم أحد، ولا حتى المتهمين أنفسهم. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد التاسع، ص ٦١٦)، لكنني مبارك، وأستجيب بنعم، إذا كنتِ فقط حولي، أيتها الطاهرة، المضيئة، أنت الهوة المضيئة، أحمل معي إجابتي الإثباتية المباركة إلى كل هوة سحيقة. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل قبل شروق الشمس، ص ٢٠٨).

ما يمكن ملاحظته بالفعل في أسلوب زرادشت، هو استمرار غياب الهجمات الجدلية والساخرة، فلا يهاجم زرادشت أحدًا، ولا يُنكر في تقييماته أي مبررات

للوجود، ولا يقدم أي انتقادات هادمة.

يجب على زرادشت أن يُكافح من أجل الثبات على هذا موقف، وللقيام بذلك، يجب عليه أولًا التغلب على مشكلته الأكثر إزعاجًا، ألا وهي الاشمئزاز العظيم.

توجد فقرة لافتة للنظر في الجزء الثالث لزرادشت، حيث يواجه زرادشت شخصية تذكره بنفسه، لأنها تقوم بتقليده وتقليد تعاليمه.

لم يكُن ذلك الأحمق سوى ذاك الذي أسماه شعبه بـ"قرد زرادشت"، لأنه استرق من زرادشت بعضًا من أسلوبه في الخطابة، ولم يتوانَ عن استعارة بعضًا من كنوز حكمته. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن المرور العابر، ص ٢٢٢).

يمكننا العثور في حديث هذا الأحمق مع زرادشت، على تطابق جزئي لخطابات زرادشت في كثير من الأحيان، على سبيل المثال خطابه عن الأصنام الجديدة، وبالرغم من ذلك يبتعد زرادشت عنه قائلًا: يا تُرى ما الذي جعلك تنبح هكذا؟ ألأن أحدًا لم يُمجدك بما فيه الكفاية؟ ألذلك تجلس على هذه القمامة، حتى يكون لديك سبب كافٍ للنباح كثيرًا؟

أم حتى يكون لك سببًا لكل هذا الانتقام، الانتقام هو كل ما ترغب فيه أيها الأحمق المغرور، لقد سبرت أغوارك جيدًا.

لكن كلامك الأحمق يضر بي، حتى عندما تكون مُحقًا، وحتى إذا كانت كلمة زرادشت على حق ألف مرة فإنك ستستخدم كلمتي دائمًا في الباطل. (المرجع نفسه، ص ٢٢٤).

يُشير هذا الاقتباس الأخير بوضوح إلى أنّ خطابات زرادشت لا يجب أن تُفهم بصورة فردية، بل يجب أن تُفهم من ناحية في سياق جميع تصريحاته -حتى المُتناقض منها- ومن ناحية أخرى يجب أن تُفهم من خلال وصف نمط زرادشت المتعدد الجوانب، يعد ذلك مهمًا لفهم مَن الذي يتكلم وما هو دافعه، يترك زرادشت اشمئزازه وراءه قائلًا: سأمنحك الآن موعظة الوداع أيها الأحمق، حيث لا يمكن للمرء أن يحب أكثر، ينبغي عليه أن يمر، هكذا تكلم زرادشت ومضى مبتعدًا عن الأحمق وهذه المدينة الكبيرة. (المرجع نفسه).

زرادشت ليس معارضًا، ولكنه ليس داعمًا أيضًا. فهو يفعل ما يُعبّر عن الرفض، ولكنه في نفس الوقت يظل قائلًا أجل، يُعلّق نيتشه على هذا في كتاب هذا هو الإنسان: إنّ المشكلة السيكولوجية التي يمثلها نمط زرادشت هي كيف يستطيع هو، الذي يقول لا ويتصرف بالنفي إلى درجة غير مسبوقة، أن يظل على النقيض من روح الرافض لكل شيء سبق أن وافق عليه، كيف يمكن للروح التي تحمل أثقل مصير، وأصعب مهمة أن تكون بمثل هذه الخفة والتجاوز- هل لكون زرادشت راقصًا؟ كيف للشخص الذي يمتلك أحد بصيرة في الحقيقة وأكثرها رعبًا، والذي فكّر في أعمق الأفكار وأكثرها "دفقًا للهاوية"، ألا يجد في هذه الأشياء أي اعتراض على الوجود ولا حتى على عودته الأبدية، كيف له أن يجد الأسباب، لكي يغدو الإيجاب الأبدي لكل شيء، "أحمل نعمة إيجابي في الحياة معي إلى كل هوة سحيقة"، وهذا يُعبّر عن مفهوم ديونيسوس مرة أخرى. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٤٤).

يتعرّض كل ما هو موجود للشك الشديد من قِبل زرادشت، الرافض لكل شيء سبق أن قال له نعم، ورغم ذلك لا يمنح زرادشت أي انتقادات هادمة، يرغب في خلق عدالة جديدة، ولكي تصبح هذه العدالة ممكنة، يجب أولًا التغلّب على الجانب الآخر من الاشمئزاز العظيم، أي "إيجاب زرادشت الهائل وغير المحدود"، والذي يعني "إزالة كل اعتراض أساسي على الحياة"، حتى في مواجهة احتمالية العودة الأبدية لهذه الحياة، من خلال ذلك فقط يمكنه منح العدالة بشكل أساسي لكل شيء، تظهر هذه "العدالة الجديدة" في كتاب "العلم المرح" لنيتشه مرة أخرى.

انطلقوا إلى السفن!

إذا تأملنا كيف يؤثر على كل فرد تبريره الفلسفي الشامل لأسلوب معيشته وتفكيره، كالشمس التي تدفئه وتباركه وتشرق خصيصًا له، والتي تعفيه من الثناء واللوم، تجعله مكتفيًا بذاته، وغنيًا وسخيًا في غبطته وإحسانه، ولها الفضل في تحويل الشر إلى خير، ولها الفضل أيضًا في نضج وازدهار كل القوى، وإزالة كل الأحزان الصغيرة منها والكبيرة، حين نتأمل ذلك نصرخ برغبة: آه، لو يمكننا خلق الكثير من الشموس المشابهة لهذه، حتى الشرير، والتعيس، والشخص الاستثنائي يجب أن تكون لهم فلسفتهم الخاصة وحقهم في أشعة شمسهم، ليس لأنّ الشفقة

تجاههم هي ما تنقص، ولكن يجب علينا التخلى عن حالة الكبرياء والفطرسة هذه، بالرغم مما تعلمته منها البشرية حتى الآن بسبب ممارستها لها منذ أمد بعيد، بل لأنّ ما ينقص حقًا هي عدالة جديدة، شعار جديد لفلاسفة جُدد، حتى الأرض الأخلاقية كروية، ولها أقطابها المتعاكسة، حتى الأقطاب المتعاكسة لها الحق في الوجود، لا يزال هناك عالم آخر لاكتشافه، ولربّما يوجد أكثر من واحد، انطلقوا إلى السفن أيها الفلاسفة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٥٢٩).

تغدو تلك الصورة للشمس المُشرقة وصفًا ذاتيًا لشخصية زرادشت، الذي من خلال تغلبه على الاشمئزاز العظيم، أصبح مباركًا ومستجيبًا بنعم، لكنني مبارك، وأستجيب بنعم، إذا كنت فقط حولي، أيتها الطاهرة، المضيئة، أنتِ الهوة المضيئة، أحمل معي إجابتي الإثباتية المباركة إلى كل هوه سحيقة.

أجل، أصبحت مباركًا ومستجيبًا بنعم، لقد صارعت لفترة طويلة من أجل ذلك، حيث توجب على أن أكون مصارعًا لكي أحرر يدي وأمنح هذه البركة.

وهذه هي بركتي، أن أكون سماءً فوق كل شيء، وسقفها المستدير، وناقوسها اللازوردي، وأمانها الأبدي، طوبى لكل مَن يُبارك هكذا، لأنّ كل الأشياء معمدة في ينبوع الأبدية، وما وراء الخير والشر، لكن الخير والشر نفسهما ليسا سوى ظلال عابرة وأحزان رطبة وسحب متحركة.

إنها حقًا نعمة وليست نقمة، إننى أثق في ذلك، فوق كل الأشياء توجد سماء الصدفة، وسماء البراءة، وسماء التصادف والاحتمال، وسماء الفطرسة.

"عن التصادف والاحتمال" تلك هي النبالة الأقدم في العالم، أعدت إليها كل شيء، هكذا انقذتها من عبودية الغرض. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل قبل شروق الشمس، ص ٢٠٨).

تلتقي عدة مسارات فكرية هنا في صورة زرادشت المُستجيب بنعم، يوجد تذكير بالتغلب على الاشمئزاز العظيم "[...] صارعت لفترة طويلة من أجل ذلك، وتوجب على أن أكون مصارعًا"، كما توجد أيضًا عدة إشارات عن فكرة العودة الأبدية، "كل الأشياء معمدة في ينبوع الأبدية"، تمثل أفكار نيتشه المركزية أساس

العدالة الجديدة، وتبعًا لهذه الأفكار، يعود كل شيء في الأبدية لما كان عليه، لذا فإن النهاية الكاملة للتطورات غير ممكنة، والأغراض والأهداف دائمًا ما ستكون مؤقتة فقط، التقييمات المفيدة وغير المفيدة، الخير والشر، جميعها تحدث فقط بشكل مؤقت، ولا يمكن أن تدعي سوى صحتها النسبية فقط، كتب نيتشه في عام ١٨٨٢ وجهة النظر الأكثر أهمية هي كسب براءة الصيرورة من خلال استبعاد الغايات.)انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ٢٤٥).

ولكن مع الغايات أيضًا تسقط كل مبررات للوجود من خلال الأهداف النهائية، لم يعد هناك شيئًا يجب القيام به، أو من أجله.

"أليست كل الأشياء مرتبطة ببعضها بعضًا ارتباطًا وثيقًا؟ بحيث تجذب هذه اللحظة كل الأشياء المقبلة؟ حتى نفسها أيضًا؟ (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، عن وجهات النظر والألغاز، ص ٢٠٠).

عند التحرُّر من "عبودية الغاية" يكون كل شيء موجودًا على ما يبدو "بالصدفة" كما يقول زرادشت، ويجب أن نلاحظ أنَّ زرادشت يؤكد أنَّ هذه النتيجة تحديدًا ليست نقمة، وليست انتقاصًا من القيمة أوالكرامة، بل على النقيض من ذلك هي "نعمة".

ناقش نيتشه في كتابه "العلم المرح"، أننا ننجذب، عندما ينجح شيء ما، إلى الشك في وجود هدف أسمى، أو عناية إلهية وراء ذلك، ويعلق على ذلك مُنتقدًا: رغم كل ذلك ما أعنيه هو أن نترك الآلهة وشأنها، وأن نترك الجن في خدمتهم أيضًا، ولنكتفِ بافتراض أن مهاراتنا العلمية والنظرية في تفسير الأحداث وفهمها قد بلغت ذروتها الآن، لا نريد أن نُفكِّر كثيرًا في براعة عقولنا عندما يفاجئنا أحيانًا التناغم الرائع [.....] في الواقع، تلعب الصدفة العزيزة معنا دورًا. [...] (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٥٢٢).

إنَّ إيجابية زرادشت، التي حصل عليها بصعوبة من خلال التغلب على الاشمئزاز العظيم، هي تصور نيتشه لموقف يمكن فهمه من فسيولوجية "الرفاهية اللامتناهية"؛ أي أن كل شيء هكذا ببساطة.

***

خلق، حب، تدمير، معاناة:

توجد في زرادشت تركيبة فريدة تجمع بين الخالق، والعاشق، والمدمر. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ٣٦٠).

ولكن لكي يغدو الخالق خالقًا، يتطلب ذلك الكثير من الآلام والتحولات. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الجزر السعيدة، ص ١١٠).

يوثق الاقتباس السابق الوارد على لسان زرادشت، أن الجوانب المذكورة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا، للوهلة الأولى، لا يمكن أن تكون هذه التركيبة أكثر تناقضًا وغرابة، وهذا يُثير السؤال حول سبب محاولة نيتشه لخلق هذه التركيبة هنا.

النهج الأول هو النظر إلى ما خلقه زرادشت، وبأي طريقة وعلى أي نحو يمكن أن يكون خالقًا، يمكننا العثور على إشارات إلى ذلك في مقطع يصف فيه زرادشت صورة مربي الأشجار، الذي يزرع نسله، وكيف يربي "أطفاله"، والذين ليسوا من ذريته بالمعنى البيولوجي الضيق، لاختيارهم كخلفاء له، ما زال غصن أطفالي ينبع وينمو وهم في ربيعهم الأول، وهم بجانب بعضهم بعضًا، ويهتزون معًا بفعل عصف الرياح، أشجار حديقتي وتربتي الأكثر خصوبة.

والحقيقة أنه حيث تقف هذه الأشجار جنبًا إلى جنب، فهناك توجد الجزر السعيدة.

ولكن في يوم من الأيام سأقتلعهم، وأضع كلا منهم في مكان بمفرده، لكي يتعلموا الوحدة والتحدي والحذر، سيقفون هناك بجانب البحر، كمنارة حية لحياة لا تقهر.

هناك، حيث تهبط العواصف بشدة إلى البحر، وحيث تشرب جذور الجبل الماء، هناك سيتوجب على كل منهم أن يقف مرابطًا للحراسة ليلًا ونهارًا كي يُختبر.

يجب اختباره لمعرفة ما إذا كان من نمطي وسلالتي، وما إذا كان لديه إرادة كبيرة، صامتًا حتى حين يتحدث، ويكون بإمكانه الأخذ فيما هو يمنح، كي يغدو ذات يوم رفيقي، وشريكي في الخلق، ومحتفلًا مع زرادشت، شخص سيكتب

إرادتي على ألواحي، من أجل كمال كل الأشياء. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن السعادة رغم أنف الإرادة، ص ٢٠٤).

تم اختيار الموقع الموصوف بعناية، حيث جمع نيتشه بين مختلف المناظر الطبيعية والخصائص المناخية، المليئة بالمحتوى الفكري، يدل وصف الموقع على كونه منظر طبيعي للأفكار، أكثر من كونه بيئة طبيعية، حافة جبلية بجانب البحر ورياح عاصفة.

الجبال هي المناظر الطبيعية التي تعبّر عن البعد الفلسفي، بمعنى أنها رؤية فلسفية للوجود في الأعلى، صاغ نيتشه هذا الفكرة في كتابه "هذا هو الإنسان".

مَن يستطع أن يتنفس هواء كتاباتي، سيعرف أنّ هواء المرتفعات هو الهواء المُنعش والمنشط، يجب أن تكون مستعدًا له، وإلا فسوف تتعرّض لخطر الإصابة بنزلة برد مميتة، الجليد قريب، والوحدة مرعبة، ولكن كم هو هادئ كل شيء أثناء شروق الشمس، والفلسفة التي فهمتها وعشتها حتى الآن، هي الحياة الطوعية في الجليد والجبال العالية، البحث عن كل ما هو غريب ومشكوك فيه، وكل ما تم تقييمه سابقًا من خلال الأخلاق. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٢٥٨).

تكمُن آليات الوجود عند أقدام مراقب شبه غير مشارك في الحياة، وتشمل هذه الآليات تحديد الأهداف والقيم قبل كل شيء، تعتبر الجبال أيضًا منظرًا طبيعيًا لـ"ما وراء الخير والشر".

يعبر البحر عن منطقة الاكتشافات الجديدة، ووجهات النظر الجديدة، ولكنه أيضًا منطقة لا نهائية مرعبة، [...] لا يزال هناك عالم آخر لاكتشافه، ولربّما يوجد أكثر من واحد، انطلقوا إلى السفن أيها الفلاسفة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٥٣٠).

أبحرنا مغادرين للبلاد، قطعنا كل الجسور، وفضلًا عن ذلك لقد تركنا الأرض خلفنا، احرصي، أيتها السفينة الصغيرة، لأنّ المحيط يمتد على جانبيك، لا ريب أنه لا يهدر دائمًا، وأحيانًا يكون هادئًا مثل الحرير والذهب ومثل هاجس الخير، ولكن ستأتي أوقات ستدركين فيها أنه لا نهاية له، وأنه لا يوجد شيء أفظع من اللانهاية

[....]. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٤٨٠).

إنّ المكان الذي سينقل إليه هولاء الأطفال ليصبحوا شركاء زرادشت في الخلق هو المكان الذي يجمع بين هذين المنظرين الطبيعيين للأفكار، لا يعد هذا المزيج -بين البحر والجبل- تجاورًا محايدًا، بل تفاعلًا عنيفًا، "حيث تهبط العواصف بشدة على البحر، وتشرب جذور الجبل الماء". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٣٠).

المكان منعزل وغير مؤهل لاستضافة أحد، ينبغي على الأطفال المنقولين إلى هناك أن يثبتوا أنفسهم في وسط هذه القسوة والعزلة بين البعد الفلسفي ورحلة الاستكشاف اللانهاية، كما ينبغي عليهم العثور على إمكانية للحياة في ذلك المكان الموحش.

وباعتبارهم شركاء لزرادشت، فلا بد لهم أن يمثلوا خطة حياته الخاصة، ونمطه الخاص، والذي يمكن تطبيقه في ظل هذه الظروف المناخية، التي تمثل وجهات النظر الفلسفية: "كمنارة حية لحياة لا تقهر". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الرابع، ص ١٨٨).

في أحد الأقوال المأثورة من كتاب ما وراء الخير والشر، يصف نيتشه مهنته من خلال وجهات النظر الفلسفية: من الضروري لتنشئة فيلسوف حقيقي، أن يتوقف بنفسه عند كل تلك الدرجات التي يتوقف عندها، والتي يجب أن يتوقف عندها، خادمه، والمنشغلون بعلم الفلسفة، ويجب عليه أن يكون في البداية ناقدًا ومشككًا ومتعصبًا ومؤرخًا، ومن ثم شاعرًا وجامعًا ومسافرًا ومحللًا للألغاز وأخلاقيًا وذا رؤية و"روح حرة" ويجب عليه أن يكون كل شيء تقريبًا، ليتمكن من اجتياز محيط القيم والمشاعر الإنسانية، وليتمكن من الرؤية بأعين وضمائر مختلفة، من القمة إلى كل بُعد، ومن العمق إلى كل قمة، ومن الزاوية إلى كل أفق. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ١٤٤).

ويتابع نيشته مُقيمًا علاقة بين هولاء "الفلاسفة الحقيقيين" والمُشاركين لزرادشت في الخلق، ولكن هذا كله مجرد شروط تمهيدية لمهمته، هذه المهمة نفسها تتطلب شيئًا آخر، إنها تتطلب منه خلق القيم.

[...] لكن الفلاسفة الحقيقيين هم قادة ومشرعون، إنهم يقولون "هذا ما ينبغي أن يكون!" إنهم يحددون وجهة وغاية الإنسان[...] [...] إنهم يصلون إلى المستقبل بيدهم الخلاقة، وكل ما كان، وكل ما سيكون، يغدو بالنسبة لهم وسيلة وأداة ومطرقة، إن معرفتهم خلق، وخلقهم تشريع، وإرادتهم للحقيقة هي إرادة للقوة، فهل يوجد مثل هؤلاء الفلاسفة الآن؟ هل كان هناك بالفعل مثل هولاء الفلاسفة؟ أليس من المفترض أن يوجد مثل هؤلاء الفلاسفة؟ (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ١٤٤).

المشاركون في الخلق، الذي يتحدّث عنهم زرادشت، هم في المقام الأول خالقي القيم ومشرعيها، يسجل نيتشه أثناء كتابة زرادشت، هو خالق القيم الجديدة، لكنه ليس فنانًا. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ١٨٤).

تمت إقامة هذه العلاقة أيضًا في زرادشت، يجلس زرادشت نفسه مُنتظرًا بين الألواح القديمة المكسورة والألواح الجديدة شبه المكتوبة، إنّ التشابه بين ألواح زرادشت وألواح موسى، والتي تم كسرها في المرة الأول أيضًا من قبل موسى الغاضب، واضح للغاية، يشبه النظر إلى زرادشت الجالس بين الألواح القديمة والجديدة النظر إلى خالق أثناء استراحته، التي يتحدّث فيها عن نفسه وعن عمله: عندما جئت إلى الناس، وجدتهم يجلسون فى غرور قديم، يعتقدون أنهم يعرفون منذ زمن بعيد ما هو خير للإنسان وما هو شر. [...] لكنني أقلقت غفوتهم هذه عندما صرت أعلم، أنه لا يوجد أحد يعرف ما هو الخير والشر إلا الخالق.

فهو الذي يخلق هدف الإنسان، ويمنح الأرض معناها ومستقبلها، هو الذي يجعل شيئًا ما خيرًا أو شرًا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الألواح القديمة والجديدة، ص ٢٤٦).

يلعب زرادشت على المعنى المزدوج لجملة "معرفة ما هو خير للبشر وما هو شر لهم"، ففي المعنى التقليدي، يعتقد الشخص الذي يحكم على حياته أو حياة الآخرين بناءً على هذا المعيار، والذي تعلم قراءته بطريقة ما، أنه يعرف ما هو خير وما هو شر، وعلى النقيض، يعتقد زرادشت أن معرفة ما هو خير وما هو شر يمكن أن تعني أيضًا معرفة كيفية وضع مثل هذه المعايير.

في البداية، لا يوجد خالقون فرديون يمكنهم تقديم وصف لطرق وأسباب عملهم، تتحدث فقرة طويلة في الكتاب الأول عن تجارب سفر زرادشت في سياق البحث السلوكي المقارن.

عن ألف هدف وهدف

رأى زرادشت العديد من البلدان والشعوب، هكذا اكتشف الخير والشر في العديد من الشعوب، ولم يجد على الأرض سلطة أعظم من الخير والشر.

لا يمكن لأي شعب أن يعيش دون أن يُقيّم، لكن إذا ما رغب في البقاء على قيد الحياة، فسيكون عليه أن لا يُقيّم كما يُقيّم جاره.

الكثير مما يجده هذا الشعب خيرًا يعني عارًا وإهانة بالنسبة لشعب آخر، هكذا وجدت الأمر.

[...] حقًا أقول لكم، إنّ البشر هم مَن ابتدعوا لأنفسهم الخير والشر، فبالتأكيد لم يتسلموه، ولم يعثروا عليه، وبالطبع لم يسقط عليهم كوحي من السماء.

إنّ الإنسان هو أول مَن خلق القيم، من أجل البقاء، هو أول مَن خلق معنى للأشياء، معنى إنسانيًا، ولهذا يسمي نفسه إنسانًا، أي: المُقيّم.

التقييم هو الخلق: اسمعوا أيها الخالقون! [...].

التغيير في القيم يعني التغيير في الخالقين، ويظل دائمًا يُدمّر كل مَن كان عليه أن يكون مبدعًا وخالقًا.

كان الخالقون شعوبًا أولًا، ثم أفرادًا، وفي الحقيقة، إنّ الفرد نفسه هو أحدث الابتكارات.

كان هناك ألف هدف حتى الآن، لأنه كان هناك ألف شعب، ما زالت سلسلة الألف رقبة ناقصة وما زال الهدف الواحد ناقصًا، ما زالت الإنسانية تفتقر إلى هدف.

لكن أخبروني يا إخواني، إذا ما كانت الإنسانية تفتقر بعد إلى هدف، ألا يعني ذلك أنّ الإنسانية ما زالت تفتقر إلى نفسها؟ (انظر إلي كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن ألف هدف وهدف، ص ٧٤ وما يليها).

توجد عدة جوانب مثيرة للاهتمام في هذه الفقرة:

أولًا، تحديد القيمة كقدرة أساسية وجوهرية للإنسان، منذ البداية، ثبت أنّ البشر يستفيدون من هذه القدرة باستمرار من أجل البقاء في عشائر أو شعوب، وثبت أنّ الأثر الذي يُشكّله اختلاف القيم والأعراف في تشكيل الهوية ضروري لترسيم حدود مختلف الجماعات والشعوب، وأخيرًا، يُذكر أنّ خلق القيم والعادات هو منذ بدء الخليقة عمل الشعوب، وبعد ذلك بوقت طويل أصبح مسألة تخص الأفراد فقط، في الواقع، لم تصبح الفردية أو التصور الذاتي للأفراد ممكنة إلا بسبب تقييم خاص، اهتم نيتشه بهذا الموضوع في كتاباته المبكرة، ففي عام ١٨٨٧ كتب نيتشه كتاب مفصل عن تاريخ الأخلاق، يعرف بـ"علم أنساب الأخلاق".

إذا كان وجود القيم أمرًا أساسيًا للوجود البشري، فلا يمكن خلق قيمة جديدة إلا على خلفية قيمة موجودة بالفعل، إن خلق القيم الجديدة، وخاصة خلق قيم الأفراد، يسير جنبًا إلى جنب مع تدمير القيم القديمة، من خلال الصيغة: "ولكن لكي يغدو الخالق خالقًا، يتطلب ذلك الكثير من الآلام والتدمير" يتضح أخيرًا، لماذا يضع نيتشه وجه الخالق ووجه المدمر في مثل هذا الارتباط الوثيق.

الأمر اللافت للنظر هو أنّ شخصًا ما "يجب أن يكون خالقًا"، تفرض الديناميكية الداخلية للقيم الإنسانية نفسها هذا الأمر، ولا يحدث ذلك من خلال غطرسة مؤقتة.

الحق أقول لكم: ليس هناك خير أو شر لا يفنى، كل شيء محكوم بضرورة التغلب على نفسه دائمًا، تمارسون السلطة والعنف من خلال قيمكم وكلماتكم عن الخير والشر، أيها المقيّمون، وهذا هو حبكم الخفي، وإشراق روحكم وارتعاشها وفيضانها، لكن عنفًا أقوى ينبثق من داخل قيمكم، وتغلبًا جديدًا، فوقه تنكسر البيضة وقشرتها.

ومَن يرغب أن يغدو خالقًا للخير والشر، فعليه أولًا أن يصبح مُدمرًا ومحطمًا للقيم. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل التغلب على الذات، ص ١٤٩).

استمرت هذه الديناميكية الداخلية الدافعة مرارًا وتكرارًا إلى كسر القيم القديمة وخلق قيم جديدة في نفس الوقت، في شغل نيتشه بشكل مُكثف في فترة ما بعد زرادشت، يحاول نيتشه تسليط الضوء -بشكل منهجي جزئي- على

هذه الديناميكية باعتبارها أساسية للكائنات عامة، ذُكر مصطلح هذه الديناميكية مباشرة قبل المقطع المقتبس التالي:

توجد الحياة فقط، حيثما توجد الإرادة، لكن ليس إرادة الحياة فقط ما أعلمك إيّاه، بل إرادة القوة، هناك أشياء كثيرة يُقدرها الأحياء أكثر من الحياة ذاتها، لكن من خلال هذا التقدير تتكلم إرادة القوة. (المرجع نفسه)

ترتبط كلمتا "الخالق" و"المدمر" بالأحداث العظيمة أو الاضطرابات الجماعية أو الثورات أو حتى الكوارث العالمية، أمّا في زرادشت، فإنّ مثل هذه الأفكار تلقى معارضة حازمة دون التخلي عن إعادة التقييم، يُذكر في فصل الأحداث العظيمة، إنّ "الحرية" هي أفضل ما تحبون الصراخ به، لكنني فقدت الثقة في "الأحداث العظيمة" منذ أن أصبح يتعالى من حولها الكثير من الدخان والصراخ.

ولتصدقني يا صديقي ذو الصوت الصاخب، إنّ الأحداث العظيمة ليست لحظاتنا الأكثر صخبًا، بل الأكثر هدوءًا.

لا يدور العالم حول مبتكري الصخب الجُدد، بل حول مبتكري القيم الجديدة؛ يدور في صمت وسكون. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الأحداث العظيمة، ص ١٦٩).

يحل مبتكرو القيم هنا محل "الخالق" و"المدمر"، تحدث عملية إعادة التقييم فقط في "اللحظات الهادئة" والمنعزلة، عندما يفسح المنظور القديم المجال لمنظور جديد فجأة، يوضح نيتشه في كتابه "ما وراء الخير والشر" المعادلة بين "أعظم الأفكار" و"أعظم الأحداث": أعظم الأحداث وأعظم الأفكار -ولكن أعظم الأفكار هي أعظم الأحداث- تفهم دائمًا في وقت متأخر جدًا، فالأجيال التي تعاصر مثل هذه الأحداث لا تعيشها، بل تعيش بجوارها دون أن تدري، يحدث هنا مثلما يحدث في مملكة النجوم، فالنور الفسّع من أبعد النجوم يصل إلى البشر في وقت متأخر جدًا، وقبل وصوله، ينكر الإنسان أنّ هناك نجومًا أصلًا. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ٢٣٢).

على نحو مماثل، يمكن أن يبدو "التدمير" غريبًا أيضًا، إن الطريقة الأكثر شمولًا للتخلص من القيم هي عدم أخذها على محمل الجد، "ليس بالغضب يُقتل المرء، بل

بالضحك"، هذا ما قلته سابقًا، يا زرادشت، أيها المختفي، أيها المُدمر بلا غضب، أيها القديس الخطير، إنك مارقٌ! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، عيد الحمار، ص ٣٩٢).

يُعلّق نيتشه في كتابه "العلم المرح" على العلاقة بين الخلق والتدمير: [...] أي حمق وجنون كان سيكون في الزعم بأنه يكفي أبطال هذا الأصل، هذا القناع الضبابي من الوهم [لتدمير] العالم الذي يعتبر أساسيًا، "لتدمير ما يُسمى بالحقيقة المزعومة"! الخالقون وحدهم قادرون على التدمير، ولكن دعونا لا ننسى قط ما يلي: يكفي أن نخلق أسماءً وقيمًا واحتمالات جديدة، لنخلق على المدى البعيد أشياءً جديدة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٤٢٢).

وبقدر ما يتزامن التدمير دائمًا مع خلق وإنتاج شيء جديد، يصبح الاتفاق مع التدمير أمرًا ممكنًا بالنسبة لنيتشه.

حلي الأول هو الحكمة الديونيسية

ديونيسوس: التماهي المؤقت مع مبدأ الحياة (بما في ذلك شهوة الشهيد)، الرغبة في تدمير الأشياء النبيلة والنظر إلى كيفية سقوطها تدريجيًا في الهلاك، مثل الرغبة بمجيء المستقبل، الذي ينتصر على الحاضر مهما كان جيدًا. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ٣٣٤).

الحكمة الديونيسية هي قبول ديناميكية الخلق، والتدمير من أجل الجديد الذي تخلقه هذه الديناميكية.

إنّ اللحظة الحاسمة لهذه الديناميكية هي حب الخالق، حب رائع، يحب ويحتقر في نفس الوقت، يحب الموجود من أجل ما هو ممكن، وفي نفس الوقت يحتقره، يحتقره لكي يخلق كل ما جديد من خلال هذا الاحتقار، يرغب المحب في الخلق لأنه يحتقر، ماذا يعرف الشخص عن الحب إذا لم يُضطر إلى احتقار ما أحبه! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن طريق الخالق، ص ٨٢).

"الخلق هو الخلاص الأكبر من المعاناة وهو ما يجعل الحياة أيسر، ولكن لكي يغدو الخالق خالقًا، يتطلب منه ذلك الكثير من الآلام والتحولات". (انظر إلى كتاب

هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الجزر السعيدة، ص ١١٠).

السبب الذي يجعل زرادشت "يجب أن يكون خالقًا" ليس فقط الرغبة في الخلق، ولكن أيضًا بسبب تحمّله للمعاناة، يصبح هذا السؤال "لكن أخبروني يا إخواني إذا ما كانت الإنسانية تفتقر بعد إلى هدف، ألا يعني ذلك أنّ الإنسانية ما زالت تفتقر إلى نفسها؟" معذبًا لزرادشت بسبب اشمئزازه من الوجود، ويجبر على تحديد الأهداف: إنكم (الأشخاص الأرقى) لا تعانون بما فيه الكفاية بالنسبة لي، ذلك لأنكم تتعذبون بأنفسكم، ولم تتعذبوا بعد من الإنسان. ستصبحوا كاذبين إذا ما ادعيتم غير ذلك، لا يعاني أحد منكم مما عانيت منه أنا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الإنسان الراقي، ص ٣٥٩).

توجد معاناة ثانية، ألا وهي مُعاناة الخلق، لأنها تُشكّل تدميرًا أيضًا، سبق أحد اقتباسات زرادشت، والتي أسيء استخدامها سابقًا، سؤالًا حزينًا حول قسوة الإنسان: يا إخوتي هل أنا قاسٍ؟ لكنني أقول لكم ما يكون على وشك السقوط، علينا أن نساعده بدفعة! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الألواح القديمة والجديدة، ص ٢٦١).

إنّ زرادشت ليس قاسيًا أو شنيعًا، بل هو تلك التركيبة المعقدة بين الخالق، والعاشق، والمدمر، والمتألم، وبالتأكيد لم يكُن نيتشه نفسه على مستوى مطالبه الخاصة بالقسوة والرحمة، وبدلًا من ذلك، وثق معاناته بسبب اعتقاده أنه بدأ من خلالها زرادشت: يا زرادشت، أيها المدافع عن الحياة، يجب عليك أيضًا أن تكون مدافعًا عن المُعاناة، يجب على الناس أن يصبحوا أكثر شرًا، الكتاب الرابع من زرادشت يمثل معاناتي الأعظم، يجب أن أجعلهم أكثر شرًا! (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ٥٣٩).

***

أحمق فقط! شاعر فقط!:

أنني أتكلم بالأمثال وأتلعثم مثل الشعراء: حقًا، إنني أخجل من كوني شاعرًا حتى الآن. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الألواح القديمة والجديدة، ص ٢٤٧).

من الواضح أنّ زرادشت يتخذ موقفًا من الشعراء، يمتد هذا الموضوع عبر الكتاب بأكمله، تسلسل تصريحات زرادشت مربك للغاية، حيث يبدو موقف زرادشت متناقضًا، كما يبدو مصطلح "الشاعر" بالنسبة له متناقضًا أيضًا.

إنّ هذا الاقتباس مثير للاهتمام خاصة بسبب الشكل الأدبي المثير للجدل للكتاب نفسه، هل أصبح نيتشه نفسه شاعرًا حينما كتب زرادشت؟ يُثير الاختلاف المذهل في الشكل النصي لأعماله الأخرى أيضًا التساؤل حول ما إذا كان لا يزال هناك فلسفة في زرادشت أم مجرد كتابات شعرية.

يمكن قراءة الاقتباس السابق مرة أخرى كتعليق ذاتي على هذه المشكلة عندما يسمح نيتشه لزرادشت بأن يقول: "إنني أخجل من كوني شاعرًا حتى الآن".

تُترجم هذه القيمة المزدوجة الإشكالية، المرتبطة بتسمية الذات "شاعر"، إلى تصريحات تقال على لسان زرادشت، والتي يمكن ملاحظة تناقضها بوضوح، حتى بالنسبة لرفيق زرادشت المؤقت، قال زرادشت ذات مرة: كل ما هو غير قابل للفناء هو مجرد مثل، والشعراء يكذبون كثيرًا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل الجزر السعيدة، ص ١١٠).

في فصل لاحق بعنوان "عن الشعراء" يُدافع زرادشت عن نفسه ضد هذا الاقتباس السابق، قال أحد التلاميذ: سمعتك تقول من قبل "كل ما هو غير قابل للفناء هو مجرد مثل!"، ثم أضفت: "لكن الشعراء يكذبون كثيرًا"، لماذا قلت إنّ الشعراء يكذبون كثيرًا؟

قال زرادشت: لماذا؟ أتسألني لماذا؟ أنا لست من أولئك الذين يحق للمرء أن يسألهم عن دوافعهم.

إن تجربتي ليست من بنات الأمس، فقد مرّ زمن طويل منذ أن عايشت دوافع ومبررات لآرائي.

ألا يتوجب عليّ أن أكون برميلًا من الذكريات، إذا ما أردت الاحتفاظ بكل مبرراتي؟ إنه لمن الصعب عليّ الاحتفاظ بآرائي وأفكاري فحسب، فهناك طيور عديدة تفر مني من حين لآخر، ومن وقت لآخر أجد طائرًا غريبًا في قفص حمامتي، يرتجف حينما تلامسه يدي. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل

عن الشعراء، ص ١٦٣).

في النهاية يقرر زرادشت أخذ موقف جديد، ولكن، ماذا قال لك زرادشت سابقًا؟ إن الشعراء يكذبون كثيرًا؟ لكن زرادشت هو شاعر أيضًا، فهل ما زلت تصدق أنه قال الحقيقة آنذاك؟ وما الذي يجعلك تصدق ذلك؟

أجاب التلميذ: "إنني مؤمن بزرادشت".

هزَّ زرادشت رأسه وابتسم، ثم قال: إنَّ إيمانك لا يجعلني سعيدًا وخاصة إيمانك بي. (المرجع نفسه).

للوهلة الأولى، يبدو أنَّ زرادشت يريد أن يربك تلميذه عمدًا من خلال هذه المفارقة، "يقول الشاعر إنَّ الشعراء يكذبون" كتعديل للجملة المخترعة في العصور القديمة: "يقول الكريتي إنَّ كل الكريتيين يكذبون"، يبدو أنَّ هذه الصياغة تهدف إلى زعزعة إيمان التلميذ بصدق زرادشت، وهذا من شأنه أن يناسب زرادشت؛ لأنه يرفض التلاميذ الذين يتبعونه وهم عميان، ولا يرغب في تأسيس جماعات من المؤمنين.

ولهذا السبب يعود زرادشت إلى عزلته في نهاية الكتاب الأول، ويحذر رفاقه من نفسه: حقًا، أنصحكم: ابتعدوا عني، واحذروا من زرادشت! والأفضل أيضًا: عليكم أن تخجلوا بسببه، فربما خدعكم [...] إنكم تعظمونني، ولكن ماذا سيحدث إذا تداعى تعظيمكم هذا يومًا ما؟ احذروا من أن يقتلكم صنم ما.

تقولون إنكم تؤمنون بزرادشت، ولكن ما أهمية زرادشت؟! وتقولون إنكم مؤمنون بي، ولكن ما أهمية جميع المؤمنين؟! لم تبحثوا عن أنفسكم بعد، وهكذا وجدتموني، هكذا يفعل جميع المؤمنين، لذلك فإن الإيمان ليس بشيء ذو شأن، الآن أطلب منكم أن تفقدوني وتعثروا على أنفسكم، لن أعود إليكم إلا عندما تنكرونني جميعًا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الفضيلة الواهبة، ص ١٠١).

لا يترك زرادشت أي حقيقة وراءه ليؤمن بها أتباعه، وبدلًا من ذلك، يطالبهم بالبحث عن وجهات نظرهم الفردية، ويطلب منهم أيضًا إنكار التعاليم والمعلمين لصالح وجهات نظرهم الخاصة، بل وأكثر من ذلك، يطالبهم بالخجل من المعلم، إنَّ

المطالبة بوجود طريق واحد للخلاص أو حقيقة عالمية مرفوض عند زرادشت، كانت التجربة والسؤال مسيرتي دائمًا، وحقًا، يجب على المرء أن يتعلم كيف يجيب على مثل هذه الأسئلة، ولكن هذا هو ذوقي، [...] "هذا هو طريقي الآن، فأين هو طريقكم؟" هكذا أجبت أولئك الذين سألوني "عن الطريق"، إنّ الطريق لا وجود له بتاتًا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن روح الثقل، ص ٢٤٥).

ربّما لا يكون وصف زرادشت المناقض لنفسه "كشاعر يكذب كثيرًا" مجرد أداة تربوية لزعزعة إيمان تلميذه، بل إنّ الأمر أعمق من ذلك بكثير، بالرغم من أن التلميذ غاضب من زرادشت؛ إلا أنّ مَن يشعر بالخجل من زرادشت ليس التلميذ، وإنما زرادشت نفسه: "إنني أخجل من كوني شاعرًا حتى الآن". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الألواح القديمة والجديدة، ص ٢٤٧).

إنّ مرح ما يبدو للوهلة الأولى وكأنه ملاحظة متناقضة يختفي تمامًا أثناء هذه المحادثة، "ولكن إذا ما قال أحدهم بكل جدية إنّ الشعراء يكذبون كثيرًا، فهو على حق، نحن نكذب كثيرًا". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الشعراء، ص ١٦٤).

لا يلقى تأكيد زرادشت على كونه "شاعرًا يكذب كثيرًا" ترحيبًا كبيرًا، وبشكل أكثر جدية، يعرض فصل "نشيد الكآبة" في الكتاب الرابع الفرق بين الشعر والحقيقة:

طالب للحقيقة؟ أنت؟ -هكذا خاطبتك ساخرة- لا! ما أنت إلا شاعر.

حيوان، ماكر، متسلل، مفترس، عليه أن يكذب دائمًا، يكذب عن وعي وقصد، متلهفًا إلى الفريسة، متنكرًا بأقنعة ملونة، قناع لنفسه، وفريسة لنفسه، هل هذا هو طالب الحقيقة؟ كلا! إنه مجرد أحمق، إنه مجرد شاعر.

(انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل نشيد الكآبة، ص ٣٧١).

[...] هكذا هويت أنا أيضًا ذات يوم من علياء هوسي بالحقيقة، من رغباتي النهارية، متعبًا من الضوء، مُنهكًا من النهار، هويت منحدرًا نحو الأسفل، نحو المساء، نحو الظلام، محترقًا وظمآنًا بحقيقة واحدة، هل ما زلت تتذكر؟ هل تتذكر أيها القلب المشتعل؟ كيف كنت تحترق عطشًا آنذاك؟ لأنني كنتُ منفيًا من كل

الحقائق، مجرد أحمق! مجرد شاعرا! (المرجع نفسه، ص ٢٧٤).

تتضمن الديناميكية الداخلية للقصيدة أنّ الأصوات التي سلطت الضوء في البداية على كذب الشاعر لا يكون لها الكلمة الأخيرة، تبقى الكلمة الأخيرة لمغني "نشيد الكآبة"، حيث يُعبّر بنفسه -"منهكًا من النهار"- عن رغبته في الخداع وعدم الصدق في مواجهة الحقيقة المخيبة للآمال، ويُعبّر عن "عطشه" لأنه "منفي من كل الحقائق، مجرد أحمق! مجرد شاعرا!.

وبالرغم من ذلك، إنّ مغنى النشيد ليس زرادشت، بل الساحر القديم المخادع، ويؤكد الفرق بينه وبين زرادشت قبل أن يغني، [...] ها أنا ذا أجد نفسي مجددًا تحت سطوة روح الخداع والسحر، شيطاني الحزين.

الخصم اللدود لزرادشت: لهذا السبب فلتغفروا له! [...] لكم جميعًا، أنتم مَن تعانون مثلي من الاشمئزاز العظيم، الذين مات إلهكم القديم، ولم يوجد إله جديد بعد في المهد، أنتم جميعًا أحباء روحي المخادعة وشيطاني الساحر. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل نشيد الكآبة، ص ٢٧٠).

في بداية عرضه يصف "الساحر القديم" زرادشت على أنه خصم له، ويذكر بعد ذلك بوقت قصير تلميح ملحوظ، يمكن لزرادشت أيضًا أن يكون روحًا مخادعة وساحرة، ولكنها متنكرة فقط، وتمثل وهمًا آخر يتم استخدمه ضد الاشمئزاز العظيم: [...] أنا أعرف ذلك الشيطان زرادشت الذي أحبه رغمًا عني، وغالبًا ما يبدو لي مثل قناع قديس جميل، أو مثل حفل أقنعة جديد وبديع، يجد شيطاني الكئيب متعته بداخله [...] (المرجع نفسه).

تتطابق الادعاءات التي يقدّمها الساحر القديم، من جهة مع اعتراف زرادشت بأنه كان شاعرًا، ومن جهة أخرى، تجد توافقًا أعمق مع الفقرة التالية من فصل "عن الشعراء"، في الواقع، نحن منجذبون دائمًا نحو مملكة الغيوم، نضع عليها جلودنا الملونة ثم نسميها آلهة ورجالًا من فصيلة الإنسان الأعلى، إنها خفيفة بما يكفي لكل هذه الكراسي، كل تلك الآلهة والرجال الأعلون، آه، كم سئمت من كل هذا النقص الذي ينبغي أن يكون حدثًا، آه، كم سئمت من الشعراء! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الشعراء، ص ١٦٤).

هل ينبغي للرجل الأعلى، الذي علمه زرادشت في البداية، أن يكون من خلق الشاعر؟ وهذا يُعبر مرة أخرى عن الصعوبة الشديدة المرتبطة بمصطلح "الشاعر" في كتاب زرادشت.

يربط مونتيناري هذا التوصيف بالمشكلة الشخصية -وبالتالي الفلسفية- التي تمثلت في أنفصال نيتشه عن ريتشارد فاغنر: إنّ المشكلة الأساسية لشكل "هكذا تكلم زرادشت"، كما سنرى، مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالصعوبة أو الاستحالة التي يواجهها نيتشه في التعبير عن نفسه "كشاعر"، بل وإدانته للشعر باعتباره مناقضًا للحقيقة، كان اجتماع "الشعر والحقيقة" ممكنًا لجوته، ولكنه لم يعد مناسبًا لنيتشه، في الكتاب الرابع من "هكذا تكلم زرادشت" يشتكي الساحر (الذي تم التعرف لاحقًا على سمات فاغنر فيه) في "نشيد الكآبة" من أنه "منفي من كل الحقائق، مجرد أحمق، مجرد شاعر!"، قبل أن يضع نيتشه هذا الكلمات على لسان الساحر الممثل لفاغنر، نظم هذه القصيدة في البداية لنفسه، جنبًا إلى جنب مع سلسلة كاملة من المسودات الشعرية تحت عنوان "الشاعر- عذاب الخالق" (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ٣١٠).

في هذه المسودات، يعترف نيتشه مرة أخرى بقربه ومعارضته لفاغنر، الذي كان شاعرًا وفنانًا وممثلًا عن قناعة تامة. (انظر إلى ملاحظات مازينو مونتيناري، ص ٨٥).

يتجلى قرب نيتشه من فاغنر في كتابات فترة بازل، حيث أسند للوهم الجمالي دورًا ضروريات في خلق الثقافة والحفاظ عليها: "[...] أعني: الالتزام الواعي بالوهم والدمج القسري له كأساس للثقافة. [...] لقد استسلم فاغنر للخطر الأول".

ولكن منذ كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته" هجر نيتشه هذا التبرير الواهي للوهم الجمالي ولم يظهر اسم ريتشارد فاغنر مرة أخرى حتى في كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته".

يمكن للشاعر الآن أن يظهر بالمعنى السلبي كخالق للعوالم الجمالية الثانوية ووسائل الهروب، ومع ذلك، فإن ما يمكننا "تعلمه" من الشعراء حقًا هو الاستخدام الإبداعي لتشكيل الإمكانيات وتحديد وجهات النظر، أن نبتعد عن الأشياء إلى الحد الذي لا تظهر فيه الكثير من جزيئاتها، وأن ندقق النظر إليها كثيرًا حتى نتمكن من

رؤيتها ثانية -أو ننظر إلى الأشياء من انحراف زاوية معينة- أو نموضعها بحيث تكون مستترة جزئيًا -أو نتأملها فقط من خلال زجاج ملون أو في ضوء الغسق- أو نمنحها سطحًا وجلدًا غير شفافين بالكامل، هذا كل ما سيكون علينا تعلمه من الشعراء، مع احتمال أن نكون أكثر حكمة منهم فيما يخص باقي الأشياء، نحن نريد أن نكون شعراء حياتنا، وأولًا في صغار الأمور اليومية. (كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٥٢٨).

بالمعنى الإيجابي، فإن مصطلح الشاعر يرمز إلى وجود خالق، ومع ذلك، فإن قدرة الشعراء على خلق وجهات نظر لا ينبغي أن تقتصر على المجال الفني الضيق فقط، وعلاوة على ذلك، يمكن استخدام هذه القدرة لخلق آفاق ووجهات نظر ممكنة بالفعل، دون أن يخجل الشخص المنصف من ذلك، هذا هو الجانب الإيجابي لوصف زرادشت لنفسه كشاعر، لقد أظهر نيتشه بالفعل الجانب السلبي في كتاب "الفجر".

***

فضائل المستقبل.

[...] آه، كم يتمنى الشعراء أن يعودوا إلى سابق عهدهم، عرافون يُخبروننا شيئًا عن الممكن، [...] عليهم أن يعطونا فكرة عن فضائل المستقبل، أو عن الفضائل التي لن تظهر على الأرض أبدًا، وقد توجد في أي مكان بالعالم - المجرات الأرجوانية ودروب تبانة الجمال الكبرى، أين أنتم يا علماء فلك المثل الأعلى؟ (كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٣٢١).

ويمكننا الاستشهاد بالاقتباس التالى كمثال على العديد من الأماكن التي يظهر فيها الجانب الإيجابي لشخصية الشاعر في زرادشت:

- لقد لقنتهم كل شعري ومسعاي، إنني أجمع وأوحد كل ما كان شظايا ولغزًا وصدفة رهيبة في الإنسان.

- باعتباري شاعرًا، ومُخلصًا للصدفة، علمتهم كيفية خلق المستقبل، وأن يحرروا كل ما كان مخلوقًا من قبل.

لتخليص الإنسان من كل ماضٍ، ومن كل ما "كان"، ونعيد صياغتها حتى تكون الإرادة، ولكنني هكذا أردت، وهكذا أريد. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الألواح القديمة والجديدة، ص ٢٤٨).

يوجد اقتباس مشابه يوضّح الأمر بطريقة أكثر حدة: "أتجول بين الناس كما لو كنت أمشي بين شظايا من المستقبل، مستقبل أتمكن من مشاهدته الآن، وهذا هو كل شعري ومبتغاي، أن أجمع وأوحد ما كان شظايا ولغزًا وصدفة رهيبة". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الخلاص، ص ١٧٩).

يصبح البشر أنفسهم شظايا من المستقبل، وهو ما يتوقعه شعر زرادشت مسبقًا.

زرادشت نفسه ليس كاملًا، قبل وقت قصير من طباعة الكتاب، حذف نيتشه جُملة تقول: "لذلك [أنا لست كاملًا، أنا كثيرًا جدًا، وفي نفس الوقت قليل جدًا]، لقد خمنت ذلك كثيرًا من كلماتك وأسئلتك عني". (كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الرابع عشر، ص ٣٠٧).

***

الأفكار كتجارب.. صدق زرادشت

صادق، هكذا أسمي الذي يمشي في الصحاري بلا آلهة، وقد حطّم قلبه المتعبد.

تائهًا في الرمال الصفراء، مُحترقًا بلهيب الشمس، يُحدّق بعطش نحو الجزر الغنية بالينابيع، حيث يستلقي الأحياء تحت الأشجار الظليلة، [...] عاش منذ الأزل في الصحاري الصادقون، والأرواح الحرة، كأسياد للصحراء. [...] (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن مشاهير الحكماء، ص ١٣٣).

زرادشت -الملحد- هو حسب تعريفه روح صادقة وحرة، وتظهر حقيقة كونه شاعرًا أيضًا مدى صعوبة وصف صدق زرادشت الخاص.

وستتواجد هناك شخصيات أخرى تناقض صدق زرادشت:

العارفون، والحكماء، والعلماء، المعلمون أو المُخادعون والكاذبون، وحتى الشاعر، بقدر ما هو مخادع، ينتمي إلى هذه المجموعة، كل واحدة من هذه الشخصيات المتناقضة سوف تعطي شكلًا مختلفًا لصدق زرادشت، حقيقة أن

نيتشه يقدم العديد من الشخصيات المتناقضة تشير في المقام الأول إلى أن صدق زرادشت هو جانب إشكالي لهذه الشخصية.

إنّ البيئة التي يذهب إليها الصادق هي الصحراء، وهي بيئة معادية للحياة، ومن هناك، "يُحدّق بعطش نحو الجزر الغنية بالينابيع"، حيث يستريح الأحياء تحت الأشجار الظليلة، تظهر هذه العدائية تجاه الحياة في صورة تشريحية خاصة الروح هي الحياة التي تجرح نفسها في الحياة، فمن خلال معاناتها الخاصة، تزداد معرفتها، هل كنتم تعرفون ذلك من قبل؟ [...] أنتم تعرفون فقط شرارة الروح، ولكنكم لا ترون أي سندان هي عليه، ولا قسوة مطرقتها! حقًا أنتم لا تعرفون شيئًا عن كبرياء الروح، ولكنكم ستكونون أقل تحملًا لتواضع الروح، إذا ما أراد ذلك التواضع التكلم يومًا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن مشاهير الحكماء، ص ١٣٤).

يتمثل كبرياء الروح في إجراء جروح أعمق أو ضربات أقوى، والتشكيك في الحياة أكثر فأكثر، ويتمثل تواضع الروح في تحمل هذه الجروح والضربات بصبر أكبر، وأن يغدو سندانًا للمطرقة.

يحتوي تشريح الروح، التي هي حياة "تجرح نفسها في الحياة"، على لحظة خطر، حيث تعرض الروح الحياة للخطر، وبالتالي فهي تعرض نفسها للخطر أيضًا في الوقت ذاته، صاغ نيتشه هذا الخطر في كتابه "العلم المرح".

المفكر: هو الآن الكائن الذي يخوض فيه الطموح الدافع إلى الحياة وتلك الأخطاء الداعمة للحياة صراعهما الأولى، بعد أن أثبت الطموح إلى الحقيقة نفسه كقوة محافظة على الحياة، بالنسبة لأهمية هذا الصراع، فكل ما عداه صار غير مهم، يُطرح السؤال الأخير حول شرط الحياة هنا، وتتم المحاولة الأولى للإجابة على هذا السؤال من خلال التجربة هنا، إلى أي مدى يمكن للحقيقة أن تتحمّل الاندماج؟ هذا هو السؤال، وهذه هي التجربة، التي يتعين خوضها. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٤٧١).

هذا هو المكان الذي يتم فيه تجربة الحياة والحقيقة، فتختبر هذه التجربة أيضًا مقدار الحقيقة التي يمكن أن تتحملها الحياة، تشكك الروح الحرة في كل اليقينيات، وكل وجهات النظر، التي تعد صحيحة وملزمة، فلذلك يتم محاربتها

باعتبارها مثيرة للمشاكل وخطيرة، ولكن من يكون مكروهًا من الشعب، مثلما يكون الذئب مكروهًا من الكلاب، تكن روحًا حرة، عدوًا للقيود، المضرب عن العبادة، الساكن في الغابات.

إن مطاردته وإخراجه من مخدعه، عنيت أنّ الشعب لديه شعورًا بالعدالة، فهم ما يزالون يوجهون كلابهم الأكثر شراسة ضده. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن مشاهير الحكماء، ص ١٣٢).

***

7 - مشاهير الحكماء:

يُمكننا اعتبار مشاهير الحكماء بمثابة التناقض الأول للأرواح الحرة والصادقة، لأنهم -على النقيض من الأرواح الحرة- لا يشككون في اليقينيات، بل يؤكدون ويعززون مذاهب الحقيقة، يا مشاهير الحكماء، لقد خدمتم الشعب وخرافاته، وليس الحقيقة، وهذا هو بالضبط سبب تبجيلكم. (المرجع نفسه)

من السهل فهم مشاهير الحكماء على أنهم أعداء لزرادشت، فهم أيضًا لديهم مناصبهم ويمكنهم ملئها جيدًا أو أقل من الجيد: "لستُ غاضبًا منهم بسبب ذلك، لكنهم سيظلون دائمًا بالنسبة لي خدمًا ومُسخرين، حتى لو تألقوا بسروج من ذهب، وكثيرًا ما كانوا خدمًا جيدين ومستحقين للثناء، وهكذا تتكلم الفضيلة: إذا ما كان عليك أن تصبح خادمًا، فلتبحث عن الذي يعرف كيف يستفيد من خدماتك.

[...] وأنتم يا معشر مشاهير الحكماء، يا خادمي الشعب، لقد ترعرعتم أنتم أيضًا بروح الشعب والفضيلة، ونما الشعب كذلك من خلالكم، أقول هذا إكراما لكم! (المرجع نفسه)

ولا يُقصد بهذا التقدير أية مفارقة، ولكن يؤكد نيتشه أنّ الدور الذي تلعبه يقينيات الحكماء في صيانة المجتمعات البشرية وتنميتها هو موضع تقدير، يمكن مقارنة ذلك بتقدير "معلمي الغاية الوجود" والتشكيك فيهم في الوقت ذاته في إحدى فقرات كتاب العلم المرح.

تلك الغريزة، التي تسود بالتساوي بين الإنسان الأكثر سموًا والإنسان الأكثر دناءةً،

غريزة حفظ النوع، تظهر في أوقات متباينة في هيئة العقل وعاطفة الروح، فتلقي نفسها آنذاك محاطة بمجموعة من المبررات الرائعة، وتنسى أنها مجرد اندفاع، غريزة، حماقة، يجب أن تكون الحياة محبوبة لأنْ....! يجب على الإنسان أن يدعم نفسه ويدعم جيرانه لأنْ.....! ومهما تكون التعاريف المستقبلية لكل هذه الـ"يجب" لكل هذه الـ"لأن"، وحتى لا يبدو ما يحدث بالضرورة باستمرار من تلقاء نفسه وبدون هدف، ينشأ هدف محدد ويكتسب الإنسان وضوح الذهن، هذا ما يظهره المعلم الأخلاقي، الغاية من الوجود. [...]، وعلى المدى الطويل، لا يمكن إنكار سيادة الضحك والعقل والطبيعة على كل واحد من هولاء المعلمين العظماء [...].

لقد أصبح الإنسان تدريجيًا حيوانًا غريب الأطوار، وأكثر من أي حيوان آخر، وجد نفسه مُجبرًا على تحقيق شرط الوجود، يجب على الإنسان من وقت لآخر أن يعتقد أنه يعرف لماذا هو موجود، لا يمكن لجنسه أن يزدهر دون ثقة دورية في الحياة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٣٧١).

ومن خلال التشكيك في كل اليقينيات، تزعج الروح الحرة تلك الثقة في الحياة، ولا تمثل مثل هذه الإزعاجات تهديدًا للحياة، التي لا تحتاج إلى تلك الثقة المثارة من قبل الأهداف واليقينيات، بل يمكن أن تكون مصدرًا للتنوع أو التحدي، ولكنكم -يا معشر مشاهير الحكماء- فاترون للغاية في نظري، ولكن كل معرفة عميقة تتدفق ببرود، إن أعمق آبار الروح باردة كالثلج، برودة منعشة للأيادي الساخنة والعاملين. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن مشاهير الحكماء، ص ١٣٤).

ولذلك فإنّ زرادشت يقارن بين حكمة "مشاهير الحكماء" و"حكمته الجامحة"، فهي ليست تأكيدًا لليقينيات، بل هي تشجيع على عدم اليقين واكتشاف آفاق جديدة، ويعد الإبحار رمزًا لذلك، مثل الشراع، ارتجف أمام عنفوان الروح، تعبر حكمتي الجامحة البحار. (المرجع نفسه، ص ١٣٥).

***

رجل التدقيق الروحي:

لديّ "رجل التدقيق الروحي"، الذي يُمكننا عتباره "صادقًا" مُقارنة بزرادشت،

علاقة بالحقائق أيضًا، فعلى عكس مشاهير الحكماء، الذين يؤكدون الحقائق ويعززونها، فإنّ "رجل التدقيق الروحي" يعرف روح الاختبار والتساؤل التي تجرح نفسها في الحياة، وبالرغم من ذلك، تهدف جميع اختباراته إلى هدف واحد، ألا وهو إيجاد نقطة انطلاق آمنة على الأقل، من خلال "الذهاب إلى الأعماق" والبحث المستمر.

أجاب الفداس: أنا رجل التدقيق الروحي، ليس من السهل على أحد أن يكون أكثر صرامة وأكثر شدة وأكثر قسوة مني في أمور الروح، سوى الذي تعلمت منه ذلك، وهو زرادشت نفسه.

من الأفضل ألا يعرف المرء أي شيء قط على أن يكون لديه أنصاف معرفة بأشياء كثيرة، وأفضل أن أكون أحمقًا بذاتي بدلًا من كوني حكيمًا يقتات من أحكام الآخرين، أنا أمضي إلى العمق، ما المهم سواء أكان هذا العمق كبيرًا أم صغيرًا؟ هل يسمى مُستنقعًا أم سماءً؟ إن سعة كف من الأرض كفاية بالنسبة لي، بشرط أن تكون أرضًا حقيقة![...] (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل العلقة، ص ٣١١).

وفي فصل لاحق، كضيف في كهف زرادشت، يُعبّر المدقق بشكل أكثر وضوحًا عن الدافع وراء بحثه، ألا وهو الخوف من المجهول، والبحث عن الأمان، نحن لا نبحث عن نفس الغاية هنا أيضًا، أنا أبحث عن مزيد من الأمان، ولهذا السبب أتيت إلى زرادشت، لأنه لا يزال البرج الحصين والإرادة الأكثر ثباتًا[...].

الخوف هو الشعور الأساسي والفطري لدى الإنسان، فالخوف يُفسّر كل شيء، الفضيلة الأصلية والخطيئة الأصلية، ولقد نشأت فضيلتي من صلب الخوف، والتي أسميها العلم. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن العلم، ص ٣٧٦).

تمتع رجل التدقيق الروحي "بالوعي الفكري"، وهو ما افتقده نيشته بشدة في كل الناس وتحدّث عنه في بداية كتاب العلم المرح.

الوعي الفكري.

أقوم بالتجربة ذاتها مرارًا وتكرارًا[...]، الغالبية العظمى من الناس يفتقرون إلى الوعي الفكري، [...] أريد أن أقول: لن تجد الغالبية العظمى في الإيمان بهذا أو ذاك احتقارًا ولا في أن تلائم معه أسلوب حياتها، دون وعي سابق بالأسباب الأخيرة،

ودون أن يكلفوا أنفسهم عناء اكتشاف هذه الأسباب، وما زال أكثر الرجال موهبة وأنبل النساء ينتمون إلى هذه الغالبية العظمى. [...]

لكن فوق وسط هذا التناغم الغامض للأشياء، وكل هذا الشك وتعددية الوجود الدهشة، دون أن تطرح سؤالًا، ولا أن ترتجف رغبة ولذة في طرح الأسئلة، ولا حتى أن تكره طارح الأسئلة - هذا ما أشعر أنه جدير بالاحتقار. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٣٧٣).

تتحدث روح نيتشه الصادقة من خلال "رجل التدقيق الروحي"، ويستغل نيتشه هذا الموقف ليحتقر افتقار الآخرين إلى الوعي، وعيي الفكري يُريدني أن أعرف شيئًا واحدًا وأن أجهل ما عداه، أشعر بالاشمئزاز من كل أنصاف الأرواح، من كل الأرواح الضبابية، المُحلقة، المليئة بالحماسة.

حين ينتهي صدقي، أصبح أعمى وأرغب في أن أصبح أعمى، لكن حين أريد أن أعرف، أريد أن أكون صادقًا، أي قاسيًا وصارمًا وشديدًا وفظيعًا لا يرحم.

إن قولك يا زرادشت: "الروح هي الحياة، التي تجرح نفسها في الحياة" هو ما أرشدني إلى تعاليمك، والحق أقول لك، إنني جمعت معرفتي الخاصة بدمي. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل العلقة، ص ٣١٢).

يُشار إلى خاصية مميزة لهذه الشخصية من خلال الصور المجازية القوية، فالروح التي تجرح نفسها في الحياة، تتحول إلى علقة يضعها رجل التدقيق الروحي على نفسه.

سأل زرادشت: لعلك الخبير بأحوال العلقة إذًا؟ وتذهب في سبر أغوار العلقة إلى أعمق الأعماق أيها المدقق الصارم؟

أجاب المدقق: يا زرادشت، هذا أمر مروع، كيف أجرؤ على القيام بذلك؟!

وإذا ما كان هناك مجال أعتبر نفسي سيده والعارف به سيكون دماغ العلقة، هذا هو عالمي! (المرجع نفسه، ص ٣١١)

قاد البحث عن أسس آمنة -وهو الدافع الحقيقي لتساؤلاته- المدقق إلى دماغ العلقة، حيث أعتقد أنه سيجد أساسًا آمنًا، ومع ذلك، يبدو هذا غريبًا وبلا أهمية

مقارنة بالمهمة العظيمة المتمثلة في العثور على أساس آمن.

تتضح أهمية اثنين من المسودات لشخصية "رجل التدقيق الروحي" من شتاء ٨٤/١٨٨٥ في هذا السياق، توجد المسودة الأولى في قائمة الشخصيات التي نظمها نيتشه لكتاب زرادشت الرابع، عابد الحقائق، دماغ العلقة، يريد أن يصبح حرًا، صاحب أرقي وعي فكري [...] (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ٣٦٢).

تعد المسودة الثانية لشخصية "رجل التدقيق الروحي" سجلًا مفصلًا لكل جوانب الشخصية (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ٤٠٤ وما يليها). لم يستخدم نيتشه جميع هذه الجوانب المذكورة هناك في نهاية المطاف، يظهر صدق المرء كسبب لمعاناته مرة أخرى في هذا السجل: عيناه باردتان وجافتان، كل ما أمامه يصبح عاريًا وبلا لون، يعاني من عجزه عن الكذب ويطلق عليه إرادة الحقيقة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ٤٠٥).

ويمكننا إيجاد نظير لجانب "عابد الحقيقة" بدافع الصدق في هذا السجل أيضًا، فهم يستلقون على بطونهم أمام حقائق مستديرة صغيرة، يقبلون الغبار والأوساخ عند أقدامها، ويصرخون مبتهجين، هذه هي الحقيقة أخيرًا! (المرجع نفسه)

ومن المثير للاهتمام اعتراض زرادشت على الأمان الذي يعتقد المدقق أنه وجده في الحقائق، أنت لا تشعر حتى أنك تحلم: آه، أنت لا تزال بعيد جدًا عن الاستيقاظ!

[...] كيف أنتصرت الحقيقة هنا؟ هل ساعدها خطأ قوي؟

هنا أنت أعمى، لأن صدقك ينتهي هنا. (المرجع نفسه، ص ٤٠٦)

يوضح الاقتباس السابق المقطع الموجود بالفعل في فصل "العلقة" في كتاب هكذا تكلم زرادشت، حين ينتهي صدقي، أصبح أعمى وأرغب في أن أصبح أعمى، لكن حين أريد أن أعرف، أريد أن أكون صادقًا، أي قاسيًا وصارمًا وشديدًا وفظيعًا لا يرحم. (العلقة، ص ٣١٢)

من الحكمة عدم التشكيك في متانة الحقائق، لأن "رجل التدقيق الروحي" يبحث

عن أسباب متينة وعن نقطة استراحة لوعيه الفكري.

تخون إشادته بزرادشت بحثه عن مثل هذه الراحة لوعيه، مبارك أفضل محجم حي وأكثرهم حيوية، مبارك زرادشت علقة الوعي العظمية. (المرجع نفسه، ص ٣١٠).

***

العلماء:

الحقيقة هي أنني غادرت دار العلماء، وصفقت الباب خلفي. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن العلماء، ص ١٦٠).

إنّ ما وضعه نيتشه هنا على لسان زرادشت، يمكنه أن يُعبّر عن نيشته نفسه، تمثل مغادرة زرادشت "دار العلماء" ترك نيتشه لمنصبه كأستاذ في جامعة بازل -في هذه الحالة مغادرته لعلماء فقه اللغة- قوبل ظهور "مولد التراجيديا من روح الموسيقى" بعدم الفهم والانتقادات العنيفة في بعض الأحيان، عبّر نيشته عن عدم فهم زملائه المتخصصين أيضا في الاقتباس التالي:

لم يرغبوا أبدًا في سير أحذا فوق رؤوسهم، لذا وضعوا خشبًا وترابًا وقاذورات بيني وبين رؤوسهم.

هكذا أخمدوا وقع خطواتي، وظل أكبر العلماء أسوأ الناس استماعًا لي. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن العلماء، ص ١٦٢).

بالإضافة إلى كل هذه الإشارات لسيرة نيتشه الذاتية، لا ينبغي أن ننسى أنّ العلماء يمكن اعتبارهم على النقيض من صدق زرادشت، ومن هذا المنطلق، يبدو وجود زرادشت في دار العلماء لبعض الوقت لافتًا للنظر، ويمكن أن يقال -حتى وإن كان من قبل خروف- أنه لم يعد عالمًا، بينما كنت نائمًا، قضم خروف من إكليل اللبلاب المطوق لرأسي، وأثناء قضمه قال: "زرادشت لم يعد عالمًا"، قالها وانصرف متفاخرًا، روي لي أحد الأطفال ذلك.

أحب الاستلقاء هنا، حيث يلعب الأطفال حذو الجدار المكسور، بين الأشواك وزهور الخشخاش الحمراء.

ما زلت عالقا بالنسبة للأطفال، وبالنسبة أيضًا للأشواك وزهور الخشخاش الحمراء، إنهم أبرياء حتى في شرهم.

لكنني لم أعد واحدًا من الخراف، فليكُن قدري مباركًا.

الحقيقة هي أنني غادرت دار العلماء وصفقت الباب خلفي، جلست بروحي جانعة على مائدتهم لمدة طويلة، لم أنمو مثلهم على قضم المعرفة كمَن يكسر جوزًا. (المرجع نفسه، ص ١٦٠).

يعد تصريح زرادشت -بأنه لا يزال عالقا بالنسبة للأطفال والأشواك وزهور الخشخاش الحمر اعترافًا باستمرار ووجود بعض جوانب العالم به، في إحدى الجُمل التي أدرجها نيتشه جزئيًا في زرادشت يميز بين نوعين من العلماء.

العلماء: هؤلاء مَن نطلق عليهم اليوم جنود الروح، وللأسف أيضًا صانعي جوارب الروح. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ٣٩٠).

في فصل "عن العلماء"، يتم تجسيد النوع الثاني فعليًا، فبدلًا من كونهم "جنودًا للروح" تربى العلماء هناك على قضم المعرفة كمَن يكسر جوزًا، بغض النظر عن مدى سخرية هذه الصيغة، إلا أنها تحتوي على بعض التقدير، إلى حد ما، يقدم العلماء في مجالاتهم بعضًا من العمل المعرفي المستقل والصادق، وهو أمر ينكره نيتشه تمامًا للفلاسفة السابقين في كتاب ما وراء الخير والشر، بالطبع، قد يكون الأمر مختلفًا -أفضل- بالنسبة للعلماء، بالنسبة للعلميين الحقيقيين، إذ يوجد عندهم حقًا نوع من غريزة المعرفة، بعض الساعات المستقلة الصغيرة التي تعمل بلا كلل أو ملل دون أن تعبأ بغرائز العلماء الأخرى، ولذلك تكمُن عادة "مصالح" العالم الحقيقة في غير محلها، على سبيل المثال في الأسرة، أو في كسب المال، أو في السياسة؛ في الواقع لا يهم ما إذا وضعت ساعته المستقلة في هذا المحل للعلم أو ذاك [...]، لا يحدد ما إذا كان سيصبح هذا أم ذاك، وعلى النقيض من ذلك، لا يوجد عند الفيلسوف شيء غير شخصي بتاتًا.[...] (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ٢٠).

إنَّ كثرة وتنوع الأفكار الفردية للعلماء التي أعدت بضمير حي تتناقض -كما

يُقدّم نيتشه في الاقتباس التالي- مع "الاعتراف الذاتي" الشخصي للغاية للفلاسفة العظماء، تدريجيًا، اكتشفت ما كانت عليه الفلسفة الكبرى حتى الآن، أعني أنها اعتراف ذاتي لصاحبها، ونوع من المذكرات غير المقصودة وغير الملحوظة، وكذلك فإنّ النوايا الأخلاقية (أو اللاأخلاقية) تُشكّل بذرة الحياة الأصلية في كل فلسفة، التي دائمًا ما تنبثق عنها النبتة كلها. (المرجع نفسه، ص ١٩ وما يليها).

يميز الجانب الشخصي والفردي، الذي يجده نيتشه في الفلاسفة على عكس العلماء، وما يرتبط به من "سذاجة" بذرة الحياة الأصلية، زرادشت عن العلماء، أنا شديد الحماسة ومحترق بأفكاري الخاصة، وكثيرًا ما تختنق أنفاسي بسبب هذه الأفكار، حينها لا بد أن أخرج إلى الفضاء الفسيح وأبتعد عن كل تلك الغرف المليئة بالغبار.[...]

إنهم بارعون، ولهم أصابع ماهرة، ما لبساطتي وتعقيداتهم هذه! تمتلك أصابعهم دراية كاملة بكل خيط وغزل ونسيج، وهكذا يصنعون جوارب الروح. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن العلماء، ص ١٦٠).

لذلك، فإن ميزة العلماء على الفلاسفة لا تكمُن في حقيقة أنهم يدركون الأشياء بشكل غير شخصي ومستقل، يمنح زرادشت نفسه السيادة عليهم (العلماء)، ولكنني ما زلت أمشي بأفكاري فوق رؤوسهم، وإذا ما أردت أن أسير على قدمين من أخطائي الخاصة، سأظل رغم ذلك فوقهم وفوق رؤوسهم.

لأنّ الناس ليسوا سواسية، هكذا تتحدّث عدالتي، وما أريده أنا لا يحق لهم أن يريدوه. (المرجع نفسه، ص ١٦٢).

إنّ هذا الموقف الفكري الأرستقراطي، الذي لا تزال فيه أخطاء زرادشت متفوقة على صدق وجدارة العلماء، هو موقف غير ديمقراطي بالأساس.

إنّ واحدًا من أرقى آثار "تكون وفساد" الديمقراطية هو إعلان الرجل العلمي استقلاله، وتحرره من الفلسفة، إنّ تمجيد الذات وتعظيمها لدى العلماء اليوم في كامل ازدهاره وفي أفضل ربيعه، وهذا لا يعني بتاتًا أنّ رائحة الثناء على النفس في هذه الحالة ستكون زكية. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ١٢٩).

يعتقد نيتشه أنه من الضروري حماية الحق في المنظورات الشخصية من هذا التطور التاريخي، فمن وجهة نظره، تزداد الثقة بالنفس لدى العلماء من خلال حقيقة أنهم قادرون على الاعتراض على المنظورات الشخصية للآخرين في إطار الصواب العلمي.

في الجزء الخامس من "العلم المرح"، يقدم نيتشه نبذة عن المصاعب التي يواجهها الفلاسفة ومطالبهم في مقابل المصاعب التي يواجهها العلماء والعلميين ومطالبهم.

ربّما لم نكُن -نحن الفلاسفة- جميعًا مستعدين جيدًا بخصوص المعرفة حتى الآن، العلم يتقدم، وكبار العلماء على وشك أن يكتشفوا أنهم لا يعرفون منه إلا القليل، غير أن الأمر سيصبح أسوأ إذا ما كان الأمر بخلاف ذلك -لو كنّا نعرف منه الكثير- ومهمتنا هي، وستظل، أولًا وقبل كل شيء، ألا نربك أنفسنا، نحن شيء آخر غير العلماء، على الرغم من أنه لا يمكننا تجاهل كوننا علماء عند الضرورة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٦٣٥).

***

العارفون الطاهرون:

إحدى السمات، التي تُميز العلماء عن زرادشت، هي ارتباطهم بالمعرفة الطاهرة، أي محاولتهم رؤية مجالات البحث والدراسة بنظرة باردة غير مشاركة.

ولكنهم (العلماء) يجلسون باردين في الظل البارد، يرغبون أن يكونوا مجرد مشاهدين لكل شيء، ويتفادون الجلوس حيث تكون الشمس ملتهبة فوق المدرجات. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن العلماء، ص ١٦١).

وهذه هي أيضًا سمة العارفون الطاهرون، ادعاؤهم بأنهم مشاهدون ومراقبون بدون تحيز أو مصلحة شخصية تمامًا.

تنطق خطوة الرجل الصادق بوقعها، لكن القطة تمر متسللة بخطى ساكنة فوق الأرض، لذلك يبدو القمر غير شريفًا تمامًا مثل القطط.

أضرب لكم هذا المثل أيها المنافقون الحساسون، يا أصحاب المعرفة الطاهرة،

الشهوانيون كما أحب أن أدعوكم! [...]

"رغبتي الأسمى أن أنظر إلى الحياة مجردًا من كل الرغبات، وبلا لسان متدلٍ مثل الكلاب" هكذا يُخاطب عقلكم الكاذب نفسه. [...]

لتكُن لكم الجرأة أولًا على تصديق أنفسكم وأحشائكم، فأي شخص لا يصدق نفسه، يكذب دائمًا. [...]

حقًا إنكم مخادعون أيها "المتأملون"، لُدِع رادشت نفسه فيما مضي بجلودكم الإلهية، ولم يكُن يعلم بالثعابين المحشوة في هذه الجلود.

لقد ظننتُ يومًا أنني رأيت روح إله ترقص في ألعابكم، أيها العارفون الطاهرون، ولم أكُن أتصور فيما مضى وجود فنًا أرقى من فنكم. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن المعرفة الطاهرة، ص ١٥٦ وما يليها).

يشكك زرادشت في موقف "العارفين الطاهرين" ويتهمهم بخداع أنفسهم: "لتكُن لكم الجرأة أولًا على تصديق أنفسكم وأحشائكم!".

يعد فصل "المعرفة الطاهرة" انتقادًا لمحبي الجماليات و"الجمال" الذي ينظرون إليه، والذي وصفه إيمانويل كانط في تعريف مشهور بأنه "غرض للمتعة دون أي اهتمام". (انظر إلى إيمانويل كانط، نقد الحكم، الفصل الأول في الكتاب الأول، ص ٦). يتحدث زرادشت عن جمال مختلف.

أين يوجد الجمال؟ حيث يجب أن أريد بكل ما أوتيت من إرادة؛ حيث أريد أن أحب وأن أهلك، حتى لا تبقى الصورة مجرد صورة. [...]

تدعي نظراتكم الغبية الآن أنها "سكينة تأمل"! كل مَن يداعب العيون الجبانة ينبغي أن يُسمى "جميلًا"! يا مدنسي الأسماء النبيلة! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن المعرفة الطاهرة، ص ١٥٧).

يُمكننا ربط عبارة زرادشت "لم أكُن أتصور فيما مضى وجود فنًا أرقى من فنكم!" بتقدير نيتشه الشخصي طويل الأمد للجمال.

إنّ الاتهام الذي يوجهه زرادشت الآن لأولئك "المتأملون" والعارفون الطاهرون هو أنهم لا يحبون بالقدر الكافي، حقًا، إنكم لا تحبون الأرض محبة الخالقين

والمنجبين. (المرجع نفسه)

الروح الجمالية للمعرفة الطاهرة تحاول الابتعاد والاكتفاء بالنظر بلطف إلى الوجود، يقدم زرادشت حبه -الذي ليس بلا اهتمام- الجامع بين المعرفة والتدخل، يريد (البحر) أن يُقبل، ويمتصه ظمأ الشمس، يريد أن يصبح هواءً وعلوًا وممرًا من النور، ونورًا في حد ذاته.

الحقيقة أنني مثل الشمس، أحب الحياة وكل البحار العميقة، وهذا هو معنى المعرفة بالنسبة لي، أن ترتفع كل الأعماق إلى علوي. (المرجع نفسه، ص ١٥٩)

إنّ معرفة زرادشت ليست غير مبالية، ولم يتخلّ في نفس الوقت عن تفسيراته ومنظوراته الخاصة، ولكنه يتعمد تفسير الحياة بطريقة تجعلها تبدو أفضل ما يمكن.

وفقًا لهذه النظرة، فإنّ هذا العمل يتمحور حول الكمال الذاتي الممكن للحياة، في بداية الكتاب الرابع، تُوضّح الطبيعة الغريبة لمعرفة زرادشت الخاصة في صورة مفصلة، مثل صياد الأسماك، يلقي زرادشت سعادته ومعرفته ونظرته للحياة كطعم لجذب أكبر عدد ممكن من التابعين وتعليمهم و"تربيتهم".

انفتح واقذف لي بأسماكك وسرطاناتك المتلألئة! بأجود طعم لديّ سأصطاد اليوم أروع الأسماك البشرية، أقذف سعادتي في كل الأماكن -القريبة منها والبعيدة- ما بين الشروق والظهيرة والغروب، لأرى ما إذا كانت هناك أسماك بشرية ستتعلم كيف تعض طعم سعادتي، حتى إذا ما قضموا الطرف الحاد والخفي لخطاف صنارتي، سيضطرون إلى الصعود إلى الأعالي حيث أقف، أسماك الأعماق السحيقة ذات الألوان الخلابة صاعدة إلى أكثر صيادي الأسماك البشرية خبثًا وشراسة.

هذا هو أنا منذ البداية، ساحبًا، جاذبًا، مقربًا، رافقًا، مربيًا، أنا المربي الصارم، الذي لم يكُن عبثًا قوله يومًا ما: "كُن نفسك". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل قربان العسل، ص ٢٩٧).

وتبعًا لذلك المعنى، تغدو معرفة زرادشت عملًا تعليميًا وتربويًا، الفصيلة التي يجب تربيتها بواسطة هذه المعرفة هي الإنسان، لم يكُن ممكنًا، تطبيق نيتشه -والذي كان مستفزًا بما فيه الكفاية لعصره- لمصطلح "التربية" على البشر، دون أن

يرتبط ذلك بتجارب التربية العرقية اللاحقة للنازيين، وعندما يتحدث زرادشت عن التربية، فإنه يشير في المعنى المذكور أعلاه إلى التربية من خلال المعرفة والقيم والمنظورات المختلفة.

يؤكد نيتشه، من خلال وصفه للإنسان بالحيوان، أنّ الإنسان ليس مجرد كائن عقلي وروحي، وأنّ الآليات الفسيولوجية والنفسية من متطلباته الخفية، ينظر "العارف" إلى أعماق هذه المتطلبات، عرف كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته" الإنسان بهذا المعنى على أنه "الحيوان الأرقى".

الحيوان الأرقى.

الوحش الذي بداخلنا يرغب أن يُكذب عليه، الأخلاق هي كذبة بيضاء ضرورية تحمينا من خطر أن يمزقنا ذلك الوحش، ولولا تلك الأخطاء التي تنطوي عليها الأخلاق لظل الإنسان حيوانًا، ولكنه رأى في نفسه شيئًا أرقى وفرض على نفسه قوانين صارمة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثاني، ص ٦٤).

يوجد مقطع مماثل للاقتباس السابق في زرادشت، حيث يُخبرنا "رجل التدقيق الروحي": لُقن الإنسان الخوف من الحيوانات الوحشية منذ زمن طويل، بما في ذلك الخوف من الحيوان الذي يؤويه بداخله، والذي يطلق عليه زرادشت اسم "الوحش الداخلي". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن العلم، ص ٢٧٧).

صاغ نيتشه في زرادشت، معني العارف -العالم بمتطلبات البشر- أيها الأصدقاء، لقد تناهى خطاب ساخر إلى صديقكم: "انظروا إلى زرادشت، ألا ترون كيف يمضي بيننا كما لو كان يمضي بين الحيوانات؟" لكن من الأفضل أن يُقال: "يمضي العارف بين البشر مضيه بين الحيوانات". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن أهل الشفقة، ص ١١٣).

العارف لا يُقارن البشر بالحيوانات، فبالنسبة له هم لا يزالون حيوانات، إذا ما حاول زرادشت جذب الناس إلى الأعالي من خلال طعم سعادته وتربيتهم، سيغدو ذلك مهمة غير مثمرة تمامًا، إذا لم تتضمن الخصائص "البيولوجية" للإنسان قابلية خاصة على التكيف والاستقلالية، يصف نيتشه في أحد فصول كتاب "علم أنساب

الأخلاق" الإنسان بهذا المعني على أنه "حيوان لم يُكتشف بعد". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ١٢٥). واحدة من الفرص والمخاطر التي يتعرّض لها الإنسان هي أنه يمكنه أن يجرب بنفسه كل شيء بحثًا عن ماهيته، لأنّ الإنسان أكثر مرضًا، وأقل أمانًا وأكثر تغيّرًا وغموضًا عن أي حيوان آخر، فلا شك في أنه هو الحيوان المريض، من أين يأتي ذلك؟ من المؤكد أنه تجرأ وخاطر وابتكر وتحدي القدر أكثر من كل الحيوانات الأخرى مجتمعة، هو المجرب العظيم، الناقم، غير المشبع، الذي يتنافس مع الحيوانات والطبيعة والآلهة على السيادة النهائية [...]. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ٣٦٧).

يحتوي النداء الذي وجهه زرادشت إلى نفسه: "كُن نفسك" على هذا العنصر التجريبي، أن تغدو هذا الكائن البشري غير المكتشف بعد، من خلال اختبار ما يمكن أن تكون عليه.

وبافتراض وجود مستوى عالٍ من الاهتمام بمثل هذه التجارب الذاتية، فإنّ معرفة زرادشت تختلف تمامًا عن مشاهدة "العارفون الطاهرون" غير المبالية.

***

الروح التائبة:

تبتغي روح الشعراء متفرجين، حتى ولو كانوا ثيرانًا! لقد رأيت الشعراء يتغيّرون ويتجهون بأنظارهم إلى دواخلهم، لقد رأيت أرواح تائبة تقترب، أروح تائبة خارجة من صلب هولاء الشعراء. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الشعراء، ص ١٦٦).

شكّلت حقيقة أنّ "الشعراء يكذبون كثيرًا"، وأنّ أوهامهم الجمالية حول الوجود غير صادقة الجانب السلبي لمصطلح "الشاعر" المتناقض على لسان زرادشت.

ومن اللافت للنظر هو عدم مواجهة الشعراء لمتنور أو عالم، لكي لا يفضح أكاذيبهم، وبدلًا من ذلك، يعلن زرادشت أنّ الشعراء "يتوجهون بأنظارهم إلى دواخلهم"، وأنهم إلى حد ما لن يكونوا قادرين على الوقوف أمام أنفسهم، لذلك لا يقاس المُخادع والكاذب بأي معيار خارجي، بل بعدم قدرته على تحمّل نفسه أكثر

من ذلك، فيغدو روحًا تائبة.

يظهر الساحر القديم، الذي تم تقديمه سابقًا كشاعر، في الكتاب الرابع من زرادشت باعتباره "روح تائبة"، ويلحن نشيدًا حزينًا، ويضربه زرادشت بسبب ذلك، ولكن عند هذا الحد كان صبر قد نفد زرادشت ولم يتمكن من تحمُّل المزيد، فأخذ عصاه وضرب المنتحب بكل ما أوتي من قوة، "كفي" صاح به وهو يضحك بحنق: كفي، أيها الممثل! أيها المزور! أيها الكاذب حد النخاع! إنني أعرفك جيدًا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الساحر، ص ٣١٧).

لا يصدق زرادشت ادعاء الساحر القديم بأنه أضحى روحًا تائبة وبأنه يرغب في تعريض نفسه لبرودة الفكر، يظهر هذا عندما يقول الساحر القديم: "ملاحقًا لك، أيها الفكر"، وهو يتظاهر بالغناء، هذه القصة، التي يدعي فيها المخادع نفسه أنه أضحى "روحًا تائبة"؛ تُثير الشك، ويصبح واضحًا في النهاية كيف أن الكذب لا أرجل له.

[...] لقد نفذت إلى أعماقي بعينك الثاقبة، ولكنك أنت أيضًا قد قدَّمت لي عرضًا لا يُستهان به عن حقيقتك: أنت قاسٍ يا زرادشت الحكيم، أنت تجلد بحقائقك بقسوة، عصاك تُجبرني على قول هذه الحقيقة.

أجابه زرادشت وهو ما زال حانقًا للغاية: لا تتملق، أيها الساحر الملعون، أنت كاذب، فكيف لك أن تتحدَّث عن الحقيقة؟! (المرجع نفسه)

في اللحظة التالية من الحوار، يشرح الساحر، من الشخصية التي يرغب بشدة في لعب دورها، ويشير بوضوح إلى إعلان سابق لزرادشت عن "الأرواح التائبة".

قال العجوز: "تائب الروح" هو مَن كنت ألعب دوره أمامك، وأنت بنفسك مَن اخترعت هذه العبارة فيما مضى.

الشاعر والساحر الذي يوجه عقله تجاه نفسه، المتحول الذي يتجمد بصقيع علمه وضميره السيئين. [...] (المرجع نفسه، ص ٣١٨)

وفقًا للتفسير الذي قدَّمه الساحر القديم، فإنَّ "الروح التائبة" تتجه إلى النزاهة الفكرية تجاه نفسها، التي "تجمدت" بصقيع معرفتها الخاصة، كتب نيتشه ملاحظة تصف تمامًا ذلك النوع المصور في أغنية الساحر بهذا المعنى: "مَن لا يزال يحبني"

هو روح متجمدة [...] (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ٣٤٢).

يرسم نيتشه -في الجزء الأول من كتابه التنويري الراديكالي "إنسان مفرط في إنسانيته"- خطًا تاريخيًا مطابقًا للتطور، الذي يحول الفنان إلى العارف غير المتحيز بعد اختفاء كل الأوهام الدينية والميتافيزيقية، لكن هذه الافتراضات (الدينية والميتافيزيقية) خاطئة: ما هو موقفنا من الفن بعد هذه المعرفة؟ علمنا الفن على مدى آلاف السنين أن ننظر إلى الحياة بكل أشكالها باهتمام ومتعة، وأن نصل بإحساسنا إلى درجة أن نصرخ أخيرًا، كيفما كانت الحياة، فهي جيدة، إن تعاليم الفن هذه، المتمثلة في الاستمتاع بالوجود والنظر إلى الحياة البشرية كجزء من الطبيعة، دون نزاعات عنيفة، وكتطور منظم وطبيعي، قد نمت وترسخت بداخلنا، وها هي تخرج إلى الضوء كحاجة ملحة للمعرفة.[...] إنّ العالم حلقة متقدمة من تطور الفنان. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثاني، ص ١٨٥).

ما تزال لحظة الإدراك مفقودة تمامًا هنا، فهي اللحظة التي تشكك في الحياة بأكملها، لكن اللافت للنظر بالفعل هو بُعد العارف الذي يبدي ملاحظاته "دون الكثير من الحركة"، يتطرق كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته" إلى هذه المعرفة اللامبالية للعارفون الطاهرون، والذين سمح نيتشه لزرادشت بالقول عنهم أنه كان يعتقد فيما مضى أنه لا يوجد "فن أفضل [...] من فنونكم"، باعتبارها الوريث الشرعي الوحيد للفن.

تعرض قائمة الشخصيات الخاصة بالكتاب الرابع لزرادشت تحول الفنان، أي الشاعر، إلى العارف، كما تحتوي هذه القائمة أيضًا على شخصيتين يمكن العثور على سماتهما في شخصية الساحر القديم، يختار الشاعر، الراغب في الحياة البرية، العزلة وصرامة المعرفة. [...]

المخترع لمواد مخدرة جديدة، الموسيقار، الساحر، الذي خرّ ساجدًا أمام قلب محب وقال: "ليس لي! بل له سأقودكم".

يتجمد العبقري إثر نقص الحب "أنا لست فكرة ولست إلهًا كذلك" والحنان العظيم "يجب على المرء أن يحبه أكثر من ذلك". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة:

طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ٣٦٢).

يجمع نيتشه بين سمات العبقري والشاعر في "الروح المتجمدة" و"الروح التائهة" في سياق الحوار اللاحق مع الساحر القديم، يقاطع زرادشت خداعه الذي لا ينتهي، قال زرادشت بصوت حاد: لربّما خدعت أشخاصًا أفضل مني، أنا لست حذرًا من المحتالين، ينبغي على أن أكون بلا حذر، هذا هو قدري، أما أنت، فيجب عليك أن تخدع، إنني أعرفك جيدًا حتى أدرك ذلك.

عليك دائمًا أن تكون ذو معانٍ متعددة، حتى ما اعترفت به الآن، ليس صادقًا بما فيه الكفاية، وليس كاذبًا بما فيه الكفاية بالنسبة لي، أنت كاذب سيئ، فكيف يمكنك أن تصبح شيئًا آخر؟ ستظل قادرًا على إخفاء مرضك حتى إذا ظهرت عاريًا أمام طبيبك، لذلك زينت كذبتك أمامي حينما قلت: "فعلت ذلك لمجرد اللعب"، كان هناك شيء من الجدية في ذلك، ففيك شيء أيضًا من الروح التائهة.

أستطيع كشفك جيدًا، أصبحت ساحرًا للجميع، ولكن ليس لديك حيلة أو كذبة تجاه نفسك، لأنك مكشوف تمامًا أمام نفسك، تحصد الاشمئزاز كحقيقتك الوحيدة، لم يعد لديك أي كلمة صادقة، لكن فمك ظل صادقًا رغم ذلك، أعني هذا الاشمئزاز الملتصق بشفتيك. [...] (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل الساحر، ص ٣١٨).

لا يعرض زرادشت على الساحر حقيقة مستقلة، بل وكأنما يضعه أمام مرآة نفسه، فيظهر للقنان المخادع أعماله الخاصة، وخلقه المتعمد للخداع، ودوافعه لذلك الاشمئزاز من كل ما لا يتوافق مع معاييره عن الجمال والعظمة، يُوجه هذا الاشمئزاز من الوجود في النهاية ضد الساحر باعتباره معرفة ذاتية: يا زرادشت، لقد سئمت من ذلك، اشمئز من فنوني، أنا لست عظيمًا، ما فائدة التظاهر إذا؟ ولكنك تعلم جيدًا أنني كنت أبحث عن العظمة، كنت أريد أن ألعب دور الإنسان العظيم وأقنعت الكثيرين بذلك، لكن هذه الكذبة فاقت قوتي وحطمتني. [...]

أيها الساحر العجوز السيئ، إن أفضل وأصدق ما لديك وما أقدره فيك بحق، هو كونك سئمت من نفسك وصراخك قائلًا: "أنا لست عظيمًا". (المرجع نفسه)

تظهر لاحقًا سمات الشخصية الثالثة، "مخترع المواد المخدرة الجديدة"، "الذي

خرّ ساجدًا أمام قلب محب"، في شخصية الساحر: يا زرادشت، إنني أبحث عن شخص حقيقي، مباشر، بسيط، واضح، شخص في منتهى النزاهة، وعاء للحكمة، قديس للمعرفة، إنسان عظيم بحق! ألا تعرف ذلك يا زرادشت أنني أبحث عن زرادشت.

وهنا ساد صمت طويل بينهما، لكن زرادشت غرق في أعماق نفسه حتى أنه أغلق عينيه، ثم عاد إلى محاوره وأمسك بيده قائلًا بكل أدب ودهاء: هيا، هذا هو الطريق الصاعد المؤدي إلى كهف زرادشت، حيث يمكنك البحث فيه عمّن تريده [...] هل تبحث عن الإنسان العظيم أيها الأحمق الغريب؟ مَن علمك أن تفعل هذا؟ فهل اليوم هو الوقت المناسب لذلك؟ ما الذي تحاول أن تغويني به يا ساعي الشر أنت؟ (المرجع نفسه، ص ٣١٩)

من الواضح أنّ مصطلح "إغراء" يجب تفسيره عدة مرات، يتمثل إغراء زرادشت في اختباره، كما فعل الساحر، وعلاوة على ذلك، يشير سؤال زرادشت البلاغي "فهل اليوم هو الوقت المناسب لذلك؟" بأنه ليس الوقت المناسب للبحث عن الإنسان العظيم، وأنه هو نفسه لا يستسلم لإغراء الاعتقاد بأنه إنسان عظيم أو حتى الرضا عن نفسه فقط، وأخيرًا، يشير صمت زرادشت ودهائه وسماحه للساحر بالبحث عن "مَن يريد أن يجده" إلى أنّ الساحر قد فشل في إغرائه، وأنه خاطئ في تصوراته عن زرادشت، بالتأكيد زرادشت -كما تُظهر تناقضاته الذاتية وجوانبه المتعددة- ليس شخصًا بسيطًا وواضحًا.

يكمُن اختلاف زرادشت عن الساحر في الدافع، فلا ينبغي أن يكون دافع زرادشت هو الاشمئزاز من الوجود، بل إن دافعه هو التغلب على هذا الاشمئزاز العظيم.

***

الظل:

صادق، هكذا أسمي الذي يمشي في الصحاري بلا آلهة، وقد حطّم قلبه المتعبد. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن مشاهير الحكماء، ص ١٣٢).

أخيرًا، سمح نيتشه لزرادشت بأن يجتمع مع شخصية، وفقًا لذلك الوصف،

يجب أن تكون صادقة: معك حطمت كل ما عشقه قلبي، وقلبت كل معالم الحدود والصور، ركضت وراء الرغبات الأكثر خطرًا، والحق أقول لك، لقد مضيت فوق عدة جرائم في رحلتي. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل الظل، ص ٣٤٠)

مَن يتحدّث بهذه الطريقة يقدّم نفسه على أنه ظل زرادشت، يمكننا العثور على علاقة متجول آخر بظله في إطار حوار يقدم في بداية القسم الثاني من الكتاب الثاني لكتاب "إنسان مفرط في إنسانيته"، يعد التأثير المتناقض والمحدد للظل، والذي يساعد على تحسين الإدراك، موضع تقدير خاص.

وبالرغم من ذلك، لا يعد هذا الظل مجرد شخصية تتناقض مع المتجول، بل هو نتيجة حتمية لوجوده، كما يجب أخذ هذه الخاصية بعين الاعتبار فيما يتعلق بعلاقة زرادشت بظله.

المتجول: لاحظت للتو كم أنا غير مهذب معك، يا ظلي الحبيب، إذ لم أنبس بكلمة واحدة للتعبير عن مدى سعادتي بسماعك وليس برؤيتك فقط، وستعرف أيضًا أنني أحب الظل مثلما أحب الضوء، فلكي يكون هناك جمال للوجه، ووضوح للكلام، وحسن للأخلاق، ومتانة للطبع، فإن الظل على نفس القدر من أهمية الضوء، فهما ليسا متضادين، بل يمضيان يدًا بيد بكل محبة، فعندما يختفي النور، ينسحب الظل وراءه.

الظل: وأنا أكره أيضًا نفس ما تكرهه، الليل، أحب البشر لأنهم تلامذة الضوء، وأبتهج بذلك الضوء الذي يشع من عيونهم عند معرفة أو اكتشاف شيء ما، هؤلاء المستكشفون والساعون للمعرفة لا يعرفون الكلل، ذلك الظل الذي تظهره كل الأشياء عند سقوط أشعة شمس المعرفة عليها، هو أنا أيضًا. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثاني، ص ٥٣٨).

ألقى المتجول، الذي يُمثل "الروح حرة" الراديكالية، هذا الظل في ضوء المعرفة المُستنيرة والعقلانية، لكي تغدو الجوانب المظلمة وغير العقلانية للعالم، وفي الواقع للعقل البشري نفسه، واضحة ومرئية، كما جاء في القول المأثور الثاني من نفس القسم.

عقل العالم.

ما يثبت نهائيًا أنّ العالم ليس تجسيدًا لعقل سرمدي، هو أنّ هذا الجزء من العالم الذي نعرفه -أعني عقلنا البشري- ليس عاقلًا تمامًا [...]. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثاني، ص ٥٤٠).

في حالة المتجول، فإنّ ضوء تنويره الراديكالي، الذي هو أيضًا تنوير لذاته، هو الذي يلقي بالظل، يمكننا الآن أن نتساءل عن ظل زرادشت، إذا ما كان نتيجة له أم جانبه المظلم؟

أولًا، نلاحظ أنّ زرادشت لا يستقبل ظله بحرارة مثلما استقبل المتجول ظله، فمهما يبدو أنّ العلاقة بينهما متوترة، سأل زرادشت بغضب: "مَن أنت؟ وماذا تفعل هنا؟ ولماذا تسمي نفسك ظلي؟ أنت لا تعجبني". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل الظل، ص ٢٣٩).

في البداية يمكننا الإجابة على سؤال مَن هو الظل من خلال مسودة نيتشه لقائمة شخصيات الكتاب الرابع لزرادشت: التعيس، المُشرد، المُتجول، الذي نسي كيف يحب شعبه لأنه رأى العديد من الشعوب، الأوروبي الصالح.

تظهر عبارة "الأوروبي الصالح" كثيرًا في أعمال نيتشه، كما تظهر كعنوان كتاب مخطط له، ومن سمات "الأوروبي الصالح" أنه كما يقول زرادشت عن نفسه، "رأى العديد من الشعوب"، ينشأ الشك حول المطالب المطلقة لمعيار قيمة الشعب من هذه المقارنة، ويؤدي هذا الشك إلى "شدة الروح"، التي تجد نفسها أمام مهمة إيجاد قيمتها وهدفها، صاغ نيتشه هذه الفكرة في مقدمة كتاب ما وراء الخير والشر.

"ولكننا، نحن الذين لسنا مسيحيين، ولا ديمقراطيين، ولا ألمانًا بما فيه الكفاية، نحن الأوروبيون الصالحون، ذوي الأرواح الحرة -الحرة جدًا- لا نزال نمتلك "شِدة الروح" وشِدّة قوسها، وربّما الأسهم أيضًا والمهمة، ومَن يدري، رُبّما نمتلك الهدف أيضًا. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ١٢).

"[...]، مَن يدري؟" على أية حال، يُمثل ظل زرادشت "شِدة الروح" التي تفتقد للتوجيه والمنظور، فمن خلال تشكيك زرادشت في جميع القيم والالتزامات

السابقة، والتي يمكنه تدميرها باعتباره "خالقًا"، يلجأ ظله إلى التعسف والعشوائية، ومن خلال فقدانه لكل الأهداف، يصبح هو النتيجة الحتمية والجانب المظلم لزرادشت والخطر الناجم عن صدق زرادشت.

(كل شيء باطل، كل شيء متاح)، هذا ما كنت أحدث به نفسي دائمًا، قذفت بنفسي في المياه الجليدية، برأسي وقلبي معًا، آه، كم من مرة وجدتني أقف عاريًا هناك مثل سرطان البحر الأحمر [...] ولكم ركضتُ خلف الحقيقة وكلما كدت أن أصل إليها، أجدها اختفت من أمامي، وأحيانًا أريد أن أكذب، فعندها فقط أجد نفسي أمام الحقيقة.

اتضحت لي الكثير من الأشياء، والآن لم يعد هنالك ما يهمني، لا أحب أي شيء معًا يحيا من حولي، فكيف لي بأن أحب نفسي؟ [...]

وكما تعلم جيدًا يا زرادشت، كان البحث عن موطني ابتلائي، لقد استنفذني تمامًا.

"أين هو - موطني" هذا هو ما أبحث وأتساءل عنه، وبحثتُ عنه طويلًا ولم أجده، آه، أيها الكل مكان الأبدي، آه، أيها اللامكان الأبدي، آه، أيتها اللاجدوي الأبدية!

هكذا تكلم الظل، وكان وجه زرادشت يتمدد مع كل كلمة من كلماته، وقال أخيرًا بحزن: أنت ظلي.

إنَّ الخطر الذي حاق بك ليس يسيرًا، أيها الروح الحرة والمتجولة، إذا كان يومك سيئًا، فاحرص على ألا يكون مساؤك أكثر سوءًا! [...] لقد فقدت هدفك، الويل لك، كيف سيمكنك أن تنسى وأن تتجاوز هذا الفقد؟ وبفقدانك للهدف – فقدت الطريق أيضًا. (انظر إلى كتاب تكلم زرادشت فصل الظل، ص ٣٤٠ وما يليها).

إنَّ الدافع وراء "الصدق" هو ما يخلق التناقض بين صدق الظل وصدق زرادشت، أثبت زرادشت أيضًا أنه روح متحررة، وبالرغم من ذلك، يُحاول نيتشه استخدام زرادشت لخلق نقيض للروح الحرة المشوشة، فعلى النقيض من ظله، لا يستسلم زرادشت لمخاطر استقلاليته، أي ضرورة سن قوانين لنفسه.

حر من ماذا؟ ما هم زرادشت في هذا؟ لكن دع عيناك تقل لي بوضوح، حر من

هل تستطيع أن تمنح لنفسك خيرك وشرك وتفرض إرادتك على نفسك كالقالون؟ هل يمكنك أن تكون قاضي نفسك وجلاد قانونك؟

إنه لأمر فظيع أن تكون بمفردك مع قاضي قانونك وجلاده، نجم يُقذف به هكذا إلى الفضاء المقفر وإلى أنفاس الوحدة الجليدية. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن طريق الخالق، ص ٨١).

***

صدق زرادشت:

يقف مشاهير الحكماء، ورجل التدقيق الروحي، والعلماء، والعارفون الطاهرون، والروح التائبة، وحتى ظل زرادشت، على النقيض من صدق زرادشت، ينأى زرادشت بنفسه بعيدًا عن كل هذه الشخصيات.

وبالرغم من ذلك، يمكن العثور على بعض سمات كل شخصية في زرادشت نفسه أو على الأقل في مسيرته الخيالية، فعلى سبيل المثال، عندما ذكر أنه عاش دار العلماء، أو أنه لم يقدر فنًا مثلما قدّر فنون العارفون الطاهرون، تظهر سمات الشخصيات المُتناقضة بوضوح في شخصية ظل زرادشت، عرض الظل لزرادشت مدى خطورة صدقه.

ينطبق ما قاله نيتشه عن "الفيلسوف الحقيقي" في كتابه "ما وراء الخير والشر" على زرادشت، [...] ويجب عليه أن يكون في البداية ناقدًا ومشككًا ومتعصبًا ومؤرخًا، ومن ثم شاعرًا وجامعًا ومسافرًا ومحللًا للألغاز وأخلاقيًا وذا رؤية و"روح حرة" ويجب عليه أن يكون كل شيء تقريبًا. [...] (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ١٤٤).

صاغ نص نيتشه السابق الاختلافات الدقيقة والتشابهات بين زرادشت والآخرين.

غالبًا ما يمكن توضيح أحاديث الشخصيات المُتناقضة من خلال مقاطع من أعمال أخرى، أو من النصوص التي كتبها نيتشه في البداية لنفسه، كما هو الحال في حالة النص الشعري "مجرد أحمق، مجرد شاعر!".

إذًا، فلقد أعاد هكذا تكلم زرادشت -إذا ما نظرنا إليه بهذه الطريقة- التعبير عن أفكار نيتشه السابقة من جديد، وعلاوة على ذلك، يمكننا القول إنّ نيتشه جعل هذا الكتاب تعليقًا ذاتيًا على نفسه من خلال وضع شخصية زرادشت المتناقضة والمعلقة بجانب الشخصيات الأخرى.

من أجل أن تكون قادرًا على قراءة زرادشت بهذه الطريقة، من المهم الانتباه إلى الشخصية والنمط الذي ينسب إليه نيتشه الجمل أو الأفكار المعنية؛ لأنّ هذا في حد ذاته تعليق مهم من ناحية المحتوى.

في الواقع، اتضح أنّ موقف الشخصيات الأخرى ودوافعها هو السبب الرئيسي الذي جعل زرادشت ينأى بنفسه عنهم.

إنّ تركيزه الشديد على عدم المساواة بين الناس وأهمية المنظورات الشخصية يقترن بشكل مُثير للقلق بالحديث عن الامتيازات الأرستقراطية، يضع نيتشه مصطلح "الصدق" في سياق مماثل في إحدى فقرات كتابه "ما وراء الخير والشر"، يفصل الإنسان النبيل نفسه عن الكائنات التي تُظهر نقيض هذه الأحوال السامية والشامخة، فهو يحتقرها. [...]

يُحتقر الجبان والخائف والتافه وذو الأفق الضيقة، وكذلك المشكك والمتذلل، أي الإنسان الكلب المستسلم للتعذيب، والمتسول المتملق، ويُحتقر الكاذب أكثر منهم جميعًا، العامة كاذبون، هذا هو الإيمان الراسخ لدى جميع النبلاء، "نحن الصادقون"، هكذا سمى النبلاء أنفسهم في اليونان القديمة. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ٢٠٩)

هل الصدق من امتيازات النبلاء فقط؟ يُثير صدق زرادشت الكثير من التساؤلات.

***

الحكيم المُختلف زرادشت:

في الجزء الأول، يترك الحكيم زرادشت عزلته ويصبح مُعلمًا متفوقًا، وتظل ملامح الشخصية مُبهمة نسبيًا.

"حقًا، أنصحكم، ابتعدوا عني، واحذروا من زرادشت، وعلاوة على ذلك، عليكم

أن تخجلوا بسببه، فلعله خدعكم". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الفضيلة الواهبة، ص ١٠١).

هذه الدعوة إلى الاستقلالية في ختام الكتاب الأول، تضع علامات استفهام ضرورية على هذه التعاليم وهذا المعلم، لا يزال زرادشت يشبه معلمي الحكمة الآخرين ومؤسسي الأديان إلى حد كبير، ومع بداية الجزء الثاني تبدأ ملامحه في الظهور بشكل أكثر وضوحًا.

يظهر اشمئزازه، استجابته بنعم، خلقه وشعره وصدقه بوضوح في حديثه وحديث الشخصيات المتناقضة أيضًا، تساعد الإشارات المرجعية في الكتاب نفسه أو في أعمال نيتشه الأخرى على أن تصبح كل هذه الجوانب المذكورة أكثر وضوحًا، وبالإضافة إلى ذلك توجد فقرات تعبّر أيضًا عن الحالات المزاجية المختلفة، يعرف زرادشت الحزن والوحدة والشوق والصفاء والنشوة.

يختتم الجزء الثالث من زرادشت فصل بارز للغاية من حيث الشكل النصي، حيث يحتوي على مجموعة مختارة وملخصة للسمات المميزة لزرادشت، يعرف هذا الفصل باسم "الأختام السبعة.. نشيد نعم وآمين"، يتألف من سبعة أجزاء، ينتهي كل جزء من الأجزاء الشبيهة بالشعر بمقطع متكرر، ترتبط الجوانب المميزة "لنمط زرادشت الجديد" بفكرة "العودة الأبدية".

[...] آه، كيف لا أشتاق إلى الأبدية، ولدورة الزفاف الأبدية، دورة العودة. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل الأختام السبعة، ص ٢٨٧).

من خلال المقطع المكرر، يصبح كل بيت حجة مفادها تفكير زرادشت ورغبته في العودة الأبدية، نمط الحجة هو: إذا كنت هكذا، فكيف لي ألا أرغب في العودة؟ في أجزاء كثيرة من الكتاب، يحل نمط زرادشت محل التبرير الجدلي للأفكار، لا يوجد مبادئ أساسية ولا مسلمات في زرادشت، بل هناك القليل من الاستنتاجات فقط.

تصور "الأختام السبعة" زرادشت كنمط الإنسان الراغب في رؤية الحياة من منظور العودة الأبدية، يُمكننا العثور على سمات هذا النمط بوضوح في الجزء التالي، والتي تُشير إلى زرادشت غير المؤمن بالآلهة، وإذا ما جلست مبتهجًا حيث

ترقد الآلهة القديمة، مباركًا للعالم ومحبًا له بجوار رفات قدماء المفترين في العالم [...] (المرجع نفسه، ٢٨٨)

ويشير الجزء الثاني والثالث من نفس الفصل إلى جانب الخالق الذي يقوم بإعادة التقييم والخلق، وإذا ما كنت حبة من ذلك الملح المبارك الذي يجعل المكونات كلها تمتزج جيدًا في وعاء الخلط، ذلك أنْ هناك ملحًا يربط الخير بالشر [...] (المرجع نفسه، ٢٨٩)

يُشير الجزء السابع إلى إشكالية الصدق، والافتقار للتوجيه المطلق والمنظور الذي يسمح لزرادشت بأن يكون "روحًا حرة وشاعرًا"، [...] ولكن هكذا تتكلم حكمة الطيور، انظر، لا يوجد فوق ولا تحت، إرمِ بنفسك في كل الاتجاهات، إلى الأمام، إلى الخلف، أيها الكائن الخفيف، غنِّ وكف عن الكلام.

- ألم تخلق الكلمات من أجل الكائنات الثقيلة؟ أليست الكلمات كلها كاذبة بالنسبة للكائن الخفيف؟ غنِّ وكف عن الكلام! (المرجع نفسه، ص ٢٩١).

***

العرّاف:

إذا كنت عرّافًا ومملوءًا بتلك الروح العرّافة والمتجولة فوق جسر مرتفع بين بحرين، تمضي بين الماضي والمستقبل مثل سحابة ثقيلة، عدوة لكل الأودية الرطبة الخانقة، ولكل ما هو مُتعب لا هو قادر على الموت ولا هو قادر على الحياة، جاهز لانفجار صواعق البرق الناشئة في صدري المظلم، ولأشعة النور المخلصة، ممتلئًا بالصواعق المستجيبة بنعم، وتضحك بنعم، جاهزًا لصواعق عرافية.

مبارك كل مَن حمل في أحشائه مثل هذا الحمل، وحقًا، مَن سيشعل يومًا ما نور المستقبل، سيتعين عليه أن يظل لفترة طويلة معلقًا فوق الجبال مثل السحابة الثقيلة. [...] (المرجع نفسه، ٢٨٧)

لم يتم التطرق إلى هذا الجانب من زرادشت من قبل حتى الآن: "كم يتمنى الشعراء أن يعودوا إلى سابق عهدهم، عرافون يُخبروننا شيئًا عن الممكن". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٣٢١).

من خلال هذا الاقتباس من كتاب "الفجر"، يتضح لنا المعنى الذي يصف به زرادشت نفسه بأنه شاعر، الكاهن والعرّاف والمتنبئ هي تسميات تستخدم للإشارة إلى المستقبل، لا يرغب زرادشت في نقل أشياء عن المستقبل فقط، بل يرتبط في التنبؤ بأشياء عن الحاضر أيضًا، يتحدّث زرادشت من خلال فهمه لديناميكا كل ما هو موجود: "سيتكلم إذًا بما يعرفه، مثل العرّاف". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الشرور الثلاثة، ص ٢٤٠).

دون نيتشه فقرة تدور حول الانتقال من الإرادة الحرة إلى الربط الديناميكي للحاضر بالمستقبل، ممّا يسمح بإجراء التنبؤات وفقًا للمعرفة المتوفرة لدينا، تنحل "الإرادة الحرة" والمسؤولية إلى تنبؤات ومجموعة من الاحتمالات وفقًا لمعرفتنا بأنفسنا. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ٤٨٠).

ومع ذلك، فإنّ تنبؤات زرادشت ليست عمليات حسابية، بل هي لعبة ذات احتمالات كثيرة، لعبة مقصودة موجهة ضد ركود كل ما هو موجود: "عدوًا لكل ما هو مُتعب لا هو قادر على الموت ولا هو قادر على الحياة"، إنها طريقة تفكير ترسم وتتوقع البدائل بسرعة فائقة.

زرادشت العرّاف، صادق الضحكة، الصابر، المتسامح، محب القفز والقفزات الجانبية: أنا مَن ألبست نفسي هذا التاج! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الإنسان الراقي، ص ٣٦٦).

***

المستكشف، المغري، المجرب:

إذا كنت مولعًا بالبحر وكل ما يتعلق به، وإذا كنت أزداد ولعًا به عندما يتحداني بغضب، وإذا كنت أحمل بداخلي تلك الرغبة الباحثة التي تبحر نحو ما لم يتم اكتشافه بعد، وإذا كانت هناك رغبة للملاحة تسكن رغبتي، وإذا صرخت فرحتي يومًا ما: "اختفى الساحل- الآن تحررت من قيدي الأخير، اللانهائية تهدر من حولي، وبعيدًا جدًا يلمع لي الزمان والمكان، هيّا، إلى الأمام، يا قلبي العجوز! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل الأختام السبعة، ٢٩٠).

ينسجم جانب المستكشف والباحث بسلاسة مع جانب العرّاف، لا يبدو انهيار اليقينيات -"السواحل"- تهديدًا، بل بمثابة تحرر جديد، التجربة والرحلة الاستكشافية هي الكلمات الرئيسية التي تصف التغلب على الحاضر وكذلك التغلب على الذات.

شعر نيتشه في وقت مبكر بأنه "غير مواكب للعصر"، وبأن كتاباته بدءًا من عام ١٨٧٣ غير مواكبة للعصر كذلك، يشرح البُعد عن العالم المعاصر مرارًا وتكرارًا، بأنه موقف وحالة مزاجية من الغربة تجاه حاضر ينظر إليه على أنه خطير وحقير، تتطلب الغربة تجاه الحاضر الشجاعة لتحمل المخاطر، ولتجربة شيء جديد.

الغرباء بالنسبة لي والمهزلة بحق هم المعاصرون، الذين دفعني شوقي إليهم مؤخرًا، مطرود أنا الآن من كل وطن ومن أرض الأجداد، لذلك لم يعد لي من حب سوى لأرض الأطفال، الأرض غير المكتشفة بعد في أقصى البحار، أدعو شراعي للبحث والتقصي عنها.

أريد أن أجعل أطفالي فخورين بأنني ابن لآبائي، وفي المستقبل سأسعى للتكفير عن هذا الحاضر. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن بلاد الثقافة، ١٥٥).

***

الراقص والضاحك:

إذا كانت فضيلتي فضيلة راقص، وكثيرًا ما أقز بكلتي قدمي داخل نشوة الذهب والزمرد، وإذا كان خبثي خبثًا ضاحكًا، ومسكنه بين حدائق الورود وأشجار الزنابق، إذ تجتمع كل شرور في الضحك، لكنه يصبح مقدسًا ومطهرًا بسعادته الخاصة، وإذا ما كان ألفي ويائي، أن يصبح كل ثقيل خفيفًا، وكل جسد راقصًا، وكل روح طائرةً، فحقًا أقول لكم هذا هو ألفي ويائي. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل الأختام السبعة، ٢٩٠).

يعد الرقص والضحك من سمات الخفة، يحاول نيتشه الحفاظ على نمط زرادشت خاليًا من طبع الجبار، حيث لا ينبغي أن تبدو أفكاره وكأنها انتزعت من عقل معذب، ولا ينبغي أن تبدو مهامه وكأنها قد حُلت بآخر ما لديه من قوة.

إنّ العناء هو معارضة، تميز الإله عادة عن البطل (في لغتي: تعد الأقدام الخفيفة أول السمات الإلهية). (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ٩٠)

تدلل خفة زرادشت ورعونته على قدرته على الطيران، حيث يقال إنّ نمطه يمكنه الطيران عاليًا، يجب أن تكون المسافة، والرحلات الطويلة التي يُفكّر فيها "العزّاف" ذات مصداقية، ولا تبدو وكأنها من نسج الخيال عصبي.

أنا زرادشت الراقص، زرادشت الخفيف، الذي يلوح بأجنحته استعدادًا للطيران، ملوحًا لكل الطيور، جاهزًا ومتأهبًا، سعيدًا ومستهزئًا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الإنسان الراقي، ٣٦٦).

يشير نيتشه إلى ذلك في كتاب "هذا هو الإنسان" باعتباره "المشكلة النفسية الخاصة بنمط زرادشت": "[...] كيف يمكن للروح التي تحمل أثقل مصير، وأصعب مهمة أن تكون بمثل هذه الخفة والتجاوز". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٤٥).

تُوضّح هذه المشكلة أيضًا في كتاب العلم المرح، حيث يكمُن التناقض بين الفلاسفة والعلماء، والموقف الممكن للتفكير الفلسفي بجوار التفكير العلمي، والذي صيغ في صورة الرقص: [...] لا أعرف ما الذي تغب روح الفيلسوف أن تكونه، أكثر من كونها راقصة بارعة، الرقص هو مثل الفيلسوف الأعلى، وفنه وتقواه الوحيدة، وعبادته. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ٦٢٥).

رُبّما نادرًا ما عاش نيتشه مثل هذه الخفة التي يدعيها زرادشت، حتى رقص زرادشت وضحكه غالبًا ما يبدو ثقيلًا، وتعبيره اللغوي عنه يبدو مثيرًا للشفقة، إنّ محاولة إنصاف هذه الخفة فلسفيًا هي التي تبدو جديرة بالملاحظة.

***

الأعرج:

الحاضر والماضي فوق الأرض، آه، يا أصدقائي هذا أكثر الأشياء التي لا تحتمل،

وما كان لى أن أقدر على الحياة لو لم أكن عزافًا، ويمكنني رؤية ما هو قادم حقًا في المستقبل.

العزاف، وصاحب الإرادة، والخالق، والمستقبل نفسه، وجسرًا نحو المستقبل، وأعرجًا فوق الجسر في ذات الوقت، مع الأسف، كل هذا هو زرادشت.

أعتقد أنكم تتساءلون أيضًا: مَن هو زرادشت بالنسبة لنا؟ وماذا يجب أن نُسميه؟ ومثلي، تجيبون عن هذه التساؤلات بأسئلة أخرى. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الخلاص، ١٧٩).

لا تتوافق جوانب زرادشت معًا بسلاسة؛ لأنَّ زرادشت ليس نموذجًا مثاليًا بالكامل، يتوقع شوقه المستقبل، ونمطه هو الترقب، ولكنه لا يزال يقف بنفسع كالأعرج على الجسر المتجه نحو المستقبل، الذي يظهره.

توفر جوانب زرادشت إجابات لبعض الأسئلة فقط.

***

الفصل الرابع
نقطة التلاقي

الإنسان الأعلى:

نقيض الإنسان الأعلى هو الإنسان الأخير، لقد خلقتهما في نفس الوقت. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ١٦٢).

تُشير هذه الجُملة، التي دوّنها نيتشه في شتاء ٨٢/١٨٨٣، مباشرة إلى مركز الكتاب الأول لزرادشت، وفي الواقع، إنّ عبارة "الإنسان الأعلى" هي إحدى العبارات التي تتبادر إلى ذهن المرء عند سماعه اسم زرادشت أو فريدريك نيتشه.

إنّ أول ما يقوم به زرادشت القادم من الجبال عند وصوله إلى المدينة هو الحديث عن الإنسان الأعلى، تعد الجُملة الأولى، التي تفوّه بها زرادشت للحشد الموجود في السوق، إعلانًا عن تعاليم الإنسان الأعلى، وهكذا تكلم زرادشت مُخاطبًا ذلك الحشد: إنني أعلمكم الإنسان الأعلى، الإنسان شيء لا بد من التغلب عليه، فماذا فعلتم كي تتغلبوا عليه؟ (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل مقدمة زرادشت، ص ١٤).

Telegram:@mbooks90

إنه لخطاب غريب أن نعظ أولئك الموجه إليهم أنه ينبغي التغلب عليهم، وبالتالي ينتهي هذا الخطاب بضحك المستمعين: "وضحك كل الحشد على زرادشت" (المرجع نفسه، ص ١٦).

[...] وبعدما تكلم زرادشت بهذه الكلمات، نظر للحشد مرة أخرى وصمت، ثم خاطب قلبه قائلًا: ها هم يقفون هناك، ها هم يضحكون، إنهم لا يفهمونني، أنا لست الفم الذي يصلح لتلك الآذان.

هل يجب عليّ تحطيم آذانهم أولًا حتى يتعلموا السماع بأعينهم؟ هل يجب عليّ أن أصرخ بمثل دويّ الطبول وخطب الدعاة؟ أم أنهم يؤمنون فقط بأولئك المتعلمثين؟

إنّ لديهم شيئًا يفخرون به، ماذا يسمون ذلك الشيء الذي يجعلهم فخورين؟ يسمونه التعليم، فهو ما يميزهم عن رعاة الماعز، لذلك لا يروقهم سماع أي كلمة

"ازدراء" بشأنهم، لذا سوف أخاطب كبريائهم، وسأحدثهم عن أكثر الكائنات حقارة وازدراء ألا وهو الإنسان الأخير. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل مقدمة زرادشت، ص ١٨).

وفقًا لهذا التفكير الاستراتيجي، فإنّ أولئك الذين استهدفهم زرادشت في خطابه الأول يقفون بين الإنسان الأعلى والإنسان الأخير، ومن خلال تعريفهم بـ"الرجل الأخير"، يعتقد زرادشت أنه يستطيع استنادًا على كبريائهم أن يحثهم بألا يكونوا هذا "الشخص الأكثر حقارة".

ويحق للحشد الاختيار بين الإنسان الأعلى والإنسان الأخير، فوفقًا لتشخيص زرادشت، لا تزال هناك إمكانية لاتخاذ القرار، يُطلق على "الإنسان الأخير" هذا الاسم لأنه لن يكون له المزيد من بدائل، لم تعد "السعادة"، التي يعتقد آخر الناس أنهم اخترعوها، مُعرضة لخطر جديد من قبلهم.

وهكذا خاطب زرادشت الشعب:

لقد حان وقت أن يُحدّد الإنسان هدفه لنفسه، وأن يزرع الإنسان بذور أمله الأعظم.

لا تزال تربته غنية بما يكفي لذلك الغرس، لكن هذه التربة ستغدو ذات يوم فقيرة ومريضة، ولن تتمكن أي شجرة أن تنمو فيها.

الويل! سيأتي الوقت الذي لن يقدر فيه الآن على قذف سهم شوقه لما هو أبعد من الإنسان، وسيفقد وتر قوسه قدرته على الاهتزاز!

إنني أقول لكم: ينبغي على المرء أن يمتلك بعضًا من الفوضى في داخله ليتمكن من ولادة نجم راقص، إنني أقول لكم ما زال لديكم بعض الفوضى في داخلكم.

الويل! سيأتي الوقت الذي لن يقدر الإنسان فيه على ولادة نجم، الويل! سيأتي زمن الإنسان الأكثر حقارة، والذي لم يعد قادرًا على احتقار نفسه.

انظروا! ها أنا أرسم لكم صورة هذا الإنسان الأخير.

"ما هو الحب؟ ما هو الخلق؟ ما هو الشوق؟ ما هو النجم؟ هكذا يسأل الإنسان الأخير وهو يغمز بعينيه.

ثم ها هي الأرض قد غدت صغيرة، ويقفز فوقها الإنسان الأخير، فيصغر كل شيء، عرقه غير قابل للانقراض مثل فصيلة البراغيث، إن هذا الإنسان الأخير لهو الأطول عمرًا.

"لقد اخترعنا السعادة" يقولها آخر الناس، وهم يغمزون بعيونهم.

لقد هجروا الأماكن التي كان العيش فيها عسيرًا، لأنَّ المرء بحاجة للدفء، وما يزال المرء يحب جاره ويحتك به، لأنَّ المرء بحاجة للدفء.

يعد مرض المرء أو أن يكون ذو ريبة خطيئة بالنسبة لهم، فلذلك ينبغي التقدم بحذر، فالأحمق فقط هو الذي ما زال يتعثر في الحجارة أو في البشر.

قليلًا من السم بين الحين والآخر، هو ما يجعل الأحلام سعيدة، وكثيرًا من السم في النهاية، من أجل موت سعيد.

ما زال المرء يعمل أيضًا، لأنَّ العمل هو ترفيه بالنهاية، ولكن مع الحرص ألا يكون هذا الترفيه مرهقًا.

لن يغدو الإنسان فقيرًا أو غنيًا، فكلا الأمرين مرهق للغاية، مَن سيرغب بعدها أن يحكم؟ ومَن سيطيع؟ فكلا الأمرين مُرهق للغاية.

ما من راع ولا قطيع، الجميع يريد نفس الشيء، الجميع متماثلون، ومَن يشعر بطريقة مختلفة، يقود نفسه مباشرة إلى مستشفى المجانين.

"فيما مضى كان العالم بأكلمه مجنونًا" قال الأفضل من بينهم وهم يغمزون بأعينهم، إنهم أذكياء وعلى علم بكل ما حدث، وهكذا فإن سخريتهم لا تعرف حدًا، ما زالوا يتشاجرون، ولكنهم سرعان ما يتصالحون، وإلا تكدرت معدتهم.

للمرء ملذات للنهار وملذات أخرى لليل، ومع ذلك ينبغي على المرء أن يحرص على عافيته.

"لقد اخترعنا السعادة" هكذا قال آخر الناس وهم يغمزون بأعينهم. (المرجع نفسه، ص ١٩ وما يليها).

يقتصر الغرض من حياة الإنسان الأخير، كما يصفه زرادشت، على الحفاظ على

الذات: "يعد مرض المرء أو أن يكون ذو ريبة خطيرة بالنسبة لهم، فلذلك ينبغي التقدم بحذر، فالأحمق فقط هو الذي ما زال يتعثر في الحجارة أو في البشر"، "إن هذا الإنسان الأخير لهو الأطول عمرًا"، إنه يعيش من أجل الترفيه والمتعة الخالية من المخاطر قدر الإمكان.

لم تنجح استراتيجية زرادشت، فبدلًا من رفض هذا الرجل الأخير بازدراء، شعر جمهور زرادشت بالإثارة على الفور.

وعند هذا الحد انتهى خطاب زرادشت الأول، والذي يطلق عليه "المقدمة"، لأنه عند هذا الحد قاطعه صراخ الحشد وفرحته.

"أعطنا هذا الإنسان الأخير يا زرادشت، أعطنا هذا الإنسان الأخير يا زرادشت" هكذا كانوا يصيحون به، "اجعلنا هولاء الناس الأخيرين، وسنترك لك هذا الإنسان الأعلى"، وكان الجمهور بين فرح وتهليل وقرقعة بالألسن، حزن زرادشت للغاية، وخاطب قلبه قائلًا:

إنهم لا يفهمونني، أنا لست الفم المناسب لتلك الآذان، لقد عشتُ في الجبال لفترة طويلة جدًا، وكثيرًا ما استمعت إلى الجداول والأشجار، وها أنا أخاطبهم الآن مثل رعاة الماعز.

روحي هادئة ومشرقة كالجبل في الصباح، لكنهم يعتقدون أنني بارد ومستهزئ ذو نكات شنيعة، والآن ينظرون إليّ ويضحكون، وفيما هم يضحكون يكرهونني أيضًا، هنالك صقيع يتوهج في ضحكاتهم. (المرجع نفسه، ص ٢٠ وما يليها).

يعد فشل خطاب زرادشت مهمًا من عدة جوانب، أولًا، لأنه يعكس تصريح نيتشه في كتاب "هذا هو الإنسان" بأن زرادشت لا يرغب في خلق إيمان جديد: "هذه ليست موعظة، وليس مطلوبًا منكم الإيمان بأي شيء". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٢٦٠).

وتوضح المقدمة أنه لا يمكن لأي تعاليم عن الإنسان الأعلى أن تحل محل الدعوة إلى الاستقلالية، والدعوة إلى أهمية المنظورات الفردية وأهدافها، والتي تظهر مرارًا وتكرارًا في زرادشت، يقتبس نيتشه بنفسه في أحد تعليقاته المقطع الختامي في الكتاب الأول من زرادشت، والذي يحذر فيه زرادشت تلاميذه من نفسه

ويدعوهم للبحث عن أنفسهم: الآن أطلب منكم أن تفقدوني وتعثروا على أنفسكم؛ لن أعود إليكم إلا عندما تنكرونني جميعًا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الفضيلة الواهبة، ص ١٠١).

إن "وعظ الجموع" -كما لاحظ زرادشت بعد فشله- ليس الطريقة الأمثل للدعوة إلى الاستقلالية والحرية الفردية.

"لقد أنرت بصيرتي: إنني بحاجة إلى رفاق أحياء، لا أمواتًا وجثثًا أحملها معي أينما أشاء".

لكنني أحتاج إلى رفاق أحياء يتبعونني لأنهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم، وإلى هناك حيث أشاء.

لقد أنرت بصيرتي، لا ينبغي لزرادشت أن يتحدث إلى الشعب بل إلى رفاق! لا ينبغي لزرادشت أن يصبح راعيًا وكلبًا للقطيع!

لقد جئت من أجل استمالة الكثيرين للخروج من القطيع. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل مقدمة زرادشت، ص ٢٥).

تستهدف محاولة زرادشت الجموع البشرية المتجانسة عمدًا؛ أي قطيع تختفي فيه الاختلافات بين الناس ويتبع قائد واحد أو فكرة موحدة.

وبدلًا من ذلك، يركز مقطع في كتاب ما وراء الخير والشر على القيمة التعليمية للاختلافات والمسافات الاجتماعية، ومع ذلك، فإنَّ هذه الاختلافات لا تبقى غاية في حد ذاتها، بل تعمل على تطوير "شغف المسافة" تجاه الذات، أي النأي بالنفس، الذي يُشكِّل الأساس لمطالب الذات العالية.

فمن دون شغف المسافة، الذي ينشأ من الاختلاف الراسخ بين الطبقات، أي من دون كون الطبقة الحاكمة تشرف وتطل باستمرار على الاتباع والأدوات، ومن دون تمرنها الدائم على أن تأمر وتطاع وتقمع وتبعد، لا يمكن أن يتولد هذا الشغف الدفين أبدًا، ذلك الشغف إلى زيادة المسافة زيادة متجددة داخل الذات نفسها، وتكوين حالات تزداد يومًا بعد يوم علوًا وندرةً وبعدًا وسعةً وشمولًا، أي باختصار، من أجل إعلاء النوع البشري، أو إلى تغلب الإنسان على ذاته، لكي يستعمل صيغة أخلاقية

بمعنى غير أخلاقي. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ٢٠٥).

إنّ الجانب الثاني، الذي يكشفه فشل خطاب زرادشت، هو إعجاب الجمهور بالإنسان الأخير، وفقًا للاتجاه التاريخي، يتطور "الإنسان الأخير" من تلقاء نفسه أو "دون قيد أو شرط" ، ولهذا السبب يعتقد نيتشه أنّ عليه الاقتراب من البشرية من خلال دعوته الموجهة ضد هذا الميل، من خلال نشر زرادشت ضمن أمور أخرى.

يظهر كلا الجانبين مرة أخرى، في مسودة لنيتشه من عام ١٨٨٣.

يتمثل طلبي في خلق كائنات تتفوق على جميع أفراد الجنس البشري، فيمكنهم التضحية بأنفسهم والآخرين من أجل هذا الهدف.

كان للأخلاق السابقة حدودها داخل الأنواع، حيث كانت جميع الأخلاق السابقة مفيدة أولًا وقبل كل شيء في منح الأنواع متانة غير مشروطة وقدرة على البقاء، فعندما يتم تحقيق ذلك، يمكن أن يغدو الهدف أسمى.

الحركة الأولى هي حركة غير قابلة للتجنب، تسوية البشرية وجحور النمل الكبيرة وما إلى ذلك بالأرض. [...]

أمّا الحركة الأخرى، حركتي، فهي على العكس من ذلك تفاقم كل التناقضات والفجوات وتقضي على المساواة، لخلق أشخاص أعلى وأقوى، تخلق الحركة الأولى الإنسان الأخير، وتخلق حركتي الإنسان الأعلى.

ليس الهدف بأي حال من الأحوال اعتبار الآخرين أسيادًا للأولين، لكن يجب أن يتواجد النوعان جنبًا إلى جنب مع بعضهما بعضًا، منفصلين قدر الإمكان، أحدهما مثل الآلهة الأبيقورية، لا يهتم بالآخر. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ٢٤٤).

لا يعتبر نيتشه الإنسان الأعلى سيدًا، بل يراه أشبه بآلهة الفيلسوف اليوناني أبيقور، ولعلّه من الجيد أن ندع نيشته نفسه يشرح لنا أبيقور، الذي وقف أمام عينيه، حيث ينعكس في هدوءه بعضًا من هدوء وثبات آلهته:

أبيقور.

[...] أرى عينيه تحدقان مليًا في البحر الأبيض والواسع، فوق صخور الشاطئ التي تستريح عليها أشعة الشمس، بينما يلعب كبار الحيوانات وصغارها في الضوء، آمنة وهادئة مثل هذا الضوء وهذه النظرة نفسها، وحده مَن يتألم باستمرار يمكنه أن يكتشف سعادة مماثلة، سعادة عين سكن أمامها بحر الوجود، ولم تعد تكتفي بالنظر إلى سطحه وإلى هذه البشرة المرتعشة والملونة والخطرة، لم يشهد "تواضع لذة" مماثل من قبل. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٤١١).

يعتقد أبيقور أنّ الآلهة كائنات تتمتع بالثبات والهدوء التام، فهذا هو هدف خلاصه الذاتي الفلسفي، يكمن ثبات الآلهة في "الانفصال" عن كل شيء والاكتفاء الذاتي، فلم يعد يهم هؤلاء الآلهة أي شيء إنساني.

تعبّر الصورة المثلى للإنسان الأعلى عن كمال القوة، والتي تتجلى في تقرير المصير والاستقلالية والاكتفاء الذاتي.

يرسم نيتشه الانشغال الدائم بالتشاؤم كخلفية للإنسان الأعلى، مقتبسًا ذلك من أبيقور، الذي تنبع سعادته من "معاناته" المستمرة.

"مَن سعى مثلي طويلًا، مدفوعًا برغبة غامضة، إلى أن يُفكّر في التشاؤم بعمق [...]، رُبّما فتح عينيه، ومن دون قصد أبصر المثال المعاكس، مثال الإنسان الأعلى والأكثر حيوية وقبولًا للحياة، الإنسان الذي لم يرضَ فحسب بما كان وبما هو عليه، ولم يستطع التكيّف معه وحسب، بل الذي يرغب في عودة كل شيء كما كان وكما هو الآن وإلى أبد الآبدين، فيظل ينادي دون انقطاع، عُد من جديد، ليس لنفسه فقط بل للمسرحية والعرض بأكمله، وليس لعرض واحد فقط، بل في الواقع، لذاك الذي بحاجة إلى هذا العرض خاصة -ولذلك الذي يجعله ضروريًا- لأنه يحتاج ذاته دائمًا ويجعل ذاته ضرورية كيف؟ ألن يكون هذا إله الحلقة المفرغة؟ (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ٧٤ وما يليها).

يتحول "التشاؤم" الذي يتحدّث عنه نيتشه، إلى حزن عظيم يتألم منه العرّاف في زرادشت: رأيت حزنًا عظيمًا يخيم على البشر، فقد مل أفضل الناس من أعمالهم.

لقد انتشر هناك مذهب صاحب مغه ديانة: "الكل فارغ، الكل متشابه، كل شيء كان!".

ومن كل التلال يتردد الصدى، الكل فارغ، الكل متشابه، كل شيء كان! [...]

راح كل عملنا هباءً، وغدا نبيذنا سمًا، أيبست عين شريرة حقولنا وقلوبنا، أصبحنا جميعًا يابسين، وإذا سقطت نار علينا، سنتطاير مثل الرماد، نعم، لقد أصاب النار نفسها الملل مثلًا.

نضبت كل آبارنا، وانحسر البحر أيضًا، تريد الأرض نفسها أن تنشق بكل ما تحمله فوقها، لكن الأعماق لا ترغب في ابتلاعنا.

"آه، ألا يوجد بحر آخر يُمكننا الغرق فيه؟" هكذا يتردد صدى شكوانا فوق السطح الممتد للمستنقعات.

حقًا، لقد غدونا متعبين أكثر مما ينبغي كي نموت، ولكن ها نحن ما زلنا مستيقظين ونستمر في الحياة - داخل غرف الموتى! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل العراف، ص ١٧٢).

يجعل الإنسان الأعلى والأكثر حيوية وقبولًا للعالم من نفسه معنى ضروريًا للوجود، وفي نفس الوقت يصبح كماله معنى لكل شيء آخر، وهكذا يصبح الإنسان الأعلى ترياقًا للتشاؤم وللاشمئزاز.

الوصف الدقيق للإنسان الأعلى ضعيف إلى حد ما، لا نستطيع معرفة شيء عنه سوى من خلال وصف زرادشت له، فمن ناحية، هو منظور يتعلّم منه الإنسان الحالي رؤية نفسه بشكل مختلف، كمرحلة انتقالية تبرر عدم أخذ الأمور على محمل الجد -وهذا ما دونه نيتشه بالفعل في عام ١٨٧٢- ومن ناحية أخرى، إنّ واجب الإنسان الأعلى نفسه هو عدم نشر معنى الوجود، لأنه مطلب نحو المحايثة.

إنني أعلمكم الإنسان الأعلى، الإنسان شيء لا بد من التغلب عليه، فماذا فعلتم كي تتغلبوا عليه؟

ظلت كل الكائنات حتى الآن تخلق أشياءً تفوق منزلتها، فهل تريدون أن تكونوا حركة المد والجزر في هذا الفيض العظيم، وأن تعودوا إلى منزلة الحيوانات بدلًا

ما هو القرد بالنسبة للإنسان؟ أضحوكة، أم خجل أليم، هكذا يجب أن يكون الإنسان بالنسبة للإنسان الأعلى، أضحوكة أم خجل أليم.

لقد سلكتم الطريق الطويل من الدودة للإنسان، ولكنكم ما زلتم تحملون بداخلكم الكثير من الدودة، كنتم قردة ذات يوم، وحتى الآن ما زال الإنسان قردًا أكثر من أي قرد آخر.

والأكثر حكمة من بينكم، لا يتخطى كونه مزيجًا من نبات ومن شبح، لكن هل دعوتكم لكي تصبحوا أشباحًا أو نباتات؟

انظروا، إنني أعلمكم الإنسان الأعلى!

الإنسان الأعلى هو معنى الأرض، فلتقل إرادتكم، الإنسان الأعلى هو معنى الأرض.

أناشدكم يا إخواني أن تبقوا أوفياء للأرض، وألا تصدقوا أولئك الذين يحدثونكم عن الآمال الفوقأرضية! إنهم مسممون، سواء عرفوا ذلك أم لا. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل مقدمة زرادشت، ص ١٤).

يجعل الإنسان الأعلى وجود إمكانية العودة الأبدية قابلًا للتحقُّل، يذكر نيتشه في ملاحظاته حول خطة الكتاب: بعد هذه النظرة إلى الإنسان الأعلى، تصبح تعاليم العودة الأبدية مقبولة الآن! (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ٤٨٢).

لم يروج نيتشه لنفسه على أنه الإنسان الأعلى، ولم يفعل زرادشت ذلك أيضًا، بل يقدّم زرادشت نفسه على أنه المُعلن والمعد لذلك الإنسان الأعلى، انظروا، إنني المنبئ بحدوث البرق، والقطرة الثقيلة الساقطة من الغيمة، ذلك البرق يعرف بالإنسان الأعلى. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل مقدمة زرادشت، ص ١٨).

***

إرادة القوة:

إرادة الحياة؟ أفضل دائمًا استخدام مصطلح إرادة القوة بدلًا من ذلك. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ١٨٧).

أصبحت "إرادة القوة" عنوانًا لمشروع كتاب طال انتظاره، وفي أغسطس ١٨٨٨ وضع نيتشه الخطة النهائية لمحتوى هذا الكتاب، بعد ذلك، تغيّر العنوان والمفهوم، وتم تنفيذ كتاب "أفول الأصنام" كأول كتاب لـ"إعادة تقييم جميع القيم".

قامت إليزابيث فورستر نيتشه في وقت لاحق بتجميع كتاب "إرادة القوة" من المذكرات والملاحظات المتبقية، ونشرته باعتباره العمل الرئيسي لنيتشه.

إنّ "إرادة القوة" هي إحدى تجارب نيتشه الفكرية المهمة، لكن لا يوجد عمل رئيسي منهجي لنيتشه يحمل ذلك العنوان.

إينما وجدت الكائنات الحيّة، وجدت إرادة القوة، وحتى في إرادة الخادم وجدت إرادة أن يصبح سيدًا.

إنّ إرادته، التي ترغب في أن تكون سيدة على مَن هو أضعف منها، تقنعه بأنّ الأضعف يخدم الأقوى، إنها الرغبة الوحيدة التي لا يمكنه التخلي عنها.

وكما يخضع الأصغر للأكبر، لكي يحصل على المتعة والسلطة على مَن هو أصغر منه، كذلك يُخضع الأكبر نفسه مراهنًا بحياته من أجل القوة. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل في التغلب على الذات، ص ١٤٧).

يقدّم زرادشت تفسيرًا لـ"الحياة" من خلال إرادة القوة، تتناقض الملاحظات، التي قدّمها، مع الافتراض بأنّ الكائنات الحيّة مدفوعة فقط بنوع من غريزة الحفاظ على البقاء، ومن خلال هذا المنظور، تتجاوز بالفعل درجة إنكار الذات أو الخضوع من قبل "الخادم" ما هو ضروري للبقاء، ومن ناحية أخرى، يميل "الأكبر"، الذي لديه الكثير ليخسره، لوضع كل شيء على المحك من أجل زيادة قوته، رغم عدم ضرورة ذلك من وجهة نظر مبدأ الحفاظ على البقاء.

وبالرغم من ذلك، فإنّ إرادة القوة ليست مجرد جشع، فهي لا تظهر في المجال السياسي أو الاقتصادي فقط، بل يعكس السعي إلى المعرفة والفكر إرادة القوة أيضًا، كما أنها جزء من التفسير "النفسي" لكل من الحكم البشري والمعرفة والتفكير،

يدعي نيتشه أنه قام بتعميق علم النفس من خلال وجهة نظره المذكورة في إحدى فقرات كتابه ما وراء الخير والشر.

ظل علم النفس بأسره عالقًا حتى الآن في الأحكام المسبقة والمخاوف الأخلاقية، فلم يجرؤ أبدًا على سبر الأغوار.

أمّا تصوره باعتباره علم أشكال إرادة القوة وتطوره، كما أتصوره أنا، فأمر لم يخطر على بال أحد قط، على الأقل فيما يتعلق بالسماح لنا بالاعتراف بأن ما كُتِب حتى الآن هو دليل على ما كتم حتى الآن. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ٣٨).

في زرادشت، ينبغي الكشف عن "إرادة الحقيقة" لدى صفوة الحكماء بهذا المعنى "النفسي" على أنها "إرادة القوة": "إرادة الحقيقة"، هل هكذا تسمون ما يدفعكم ويؤجج رغباتكم يا صفوة الحكماء؟

هكذا أسمي إراداتكم، إرادة التصور العقلي لكل ما هو موجود.

ترغبون أولًا في جعل كل موجود يمكن تصوره، إذ تشكون بريبة في مدى إمكانية ذلك.

ولكنه ينبغي أن يخضع لكم ويصبح طوع أمركم، هذا ما تريده إرادتكم، وينبغي عليه أن يصبح مصقولًا وخاضعًا للعقل، مثل مرآة له وانعكاس لصورته.

هذه هي إرادتكم بأكملها، أيها الحكماء، هذه هي إرادة القوة، حتى عندما تتحدثون عن الخير والشر وعن القيم.

[...]

لقد وضعتم إرادتكم وقيمكم فوق نهر الصيرورة، إنّ ما يعتقده الناس من خير أو شر يفشي لي عن إرادة قوة قديمة.

[...]

بعيدًا يحمل النهر قاربكم الآن، لا بد عليه أن يحمله، لا يهم كثيرًا ما إذا كانت الموجة المُنكسرة تزبد وتتصدى بغضب للعارضة.

ليس النهر هو الخطر الذي يُهددكم، ونهاية خيركم وشركم أيها الحكماء، بل تلك الإرادة نفسها، إرادة القوة، إرادة الحياة الخصبة التي لا تنضب. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل في التغلب على الذات، ص ١٤٦).

يظهر صفوة الحكماء في دور مزودج، كمفكرين ومحددين للقيم، يمكن ربط الجوانب التي سبق ذكرها بالفعل في سياق جوانب زرادشت - خاصة المبدع والصادق- بما يلي:

إذا كان طرح المنظورات جزءًا لا مفر منه من الوجود، فإنّ محاولة التفكير في جعل كل شيء منهجيًا وفقًا لمفهوم واحد تصبح عملًا من أعمال تحديد المنظورات القوية، ومن خلال هذا المنظور للتصور العالمي، استولى الناس على "الوجود"، ما لا يمكن فهمه، أو لا يمكن التعبير عنه بشكل غير كامل، يتم قمعه في هذه العملية.

أكد نيتشه أنّ إرساء قيم جديدة يرتبط بإرادة القوة، حيث وصف واضعي القيم الجديدة بأنهم "خالقون" حقيقيون.

لا تظل قيمهم ثابتة إلى الأبد: "إنّ خلود الخير والشر هو أمر لا وجود له، كل شيء محكوم بضرورة التغلب على نفسه مرارًا وتكرارًا!" (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل في التغلب على الذات، ص ١٤٩).

يُدفع المرء بواسطة الديناميكية الداخلية إلى كسر القيم القديمة دائمًا وخلق قيم جديدة في ذات الوقت، ليس "نهر الصيرورة" الخارجي هو الذي أذاب أسس صفوة الحكماء، بل هو نفس الدافع، نفس القوة التي تدفع المرء إلى تدمير القيم القديمة وخلق قيم جديدة، أطلق نيتشه على هذه الديناميكية اسم "إرادة القوة".

واللافت للنظر في هذا الصدد أنّ أولئك الذين يمارسون إرادة القوة هم أنفسهم عرضة لهذه الديناميكية، وهذا ليس خارجيًا فقط، بل نحن نتحدّث عن ديناميكية تشكل جزءًا من الدستور الداخلي للحياة نفسها.

لقد لاحقت الكائن الحي، ومضيت في أكبر الدروب وأصغرها، لكي أتعرف على نوعه وطبيعته.

[...]

ولكن أينما وجدت كائنات حيّة، سمعت حديث المطيع هنالك أيضًا، فكل ما هو حي مطيع بالضرورة.

وهذا هو الأمر الثاني، كل مَن لا يستطيع أن يطيع نفسه يصبح مأموزًا، هذه هي طبيعة الكائن الحي.

ويقول الأمر الثالث الذي سمعته، إنّ الأمر أشد وطأة من الطاعة، ليس فقط لأنّ الآمر يحمل عبء جميع المُطيعين، بل لأنّ ذلك العبء يمكنه أيضًا سحقه بسهولة: رأيت الخطر والمخاطرة في كل الأوامر، وفي كل مرة يصدر الكائن الحي أمرًا، يقدم على المخاطرة بنفسه.

نعم، حتى عندما يأمر نفسه، لأنه في هذه الحالة يجب عليه أن يدفع ثمن أوامره، ويجب عليه أن يصبح قاضي قوانينه الخاصة والجلاد والضحية في آنٍ واحد. (المرجع نفسه، ص ١٤٧)

"كل ما هو حي مطيع بالضرورة"، فهو يُطيع ديناميكية "إرادة القوة"، التي تُشكّل دستوره الداخلي، يصف الاقتباس الاحتمالين الممكنين لهذه الطاعة، فيمكن أن تخضع الكائنات الحيّة لهذه الديناميكية من قبل الآخرين إذا لم يكونوا قادرين على ممارسة السلطة بأنفسهم، وإذا مارسوا السلطة بأنفسهم، فإنهم يظلون مطيعين لـ"إرادة القوة"، فتغدو دافعًا للمخاطرة بها من أجل قوة جديدة.

لا تتضمن القدرة على القيادة، وممارسة السلطة بنفسك إمكانية قيادة الآخرين فقط، بل قيادة نفسك أيضًا، يظهر "شغف المسافة"، الذي يمكن أن يتطور إلى حد النأي بالنفس، هنا في صيغة جديدة.

تسمح إرادة القوة لأولئك الذين يسيطرون على أنفسهم، وبالتالي يخاطرون بأنفسهم دائمًا بتقرير مصائرهم والاستقلال لأول مرة، وفي ضوء ذلك يتبين أنّ ديناميكية "إرادة القوة" هي "التغلّب على الذات".

يسمح نيتشه للحياة بالتحدّث وإفشاء سرها لزرادشت، ويتمثل هذا السر في التغلّب على الذات.

هذا السر هو ما أخبرتني به الحياة نفسها، قالت لي إنني ذلك الذي ينبغي عليه أن

يتغلب على نفسه دائمًا.

وإذا ما أطلقتم عليها إرادة الإنجاب، أو اندفاعًا غريزيًا نحو الغاية أو إلى ما هو أرقى أو إلى ما هو أبعد أو إلى ما هو أكثر تنوعًا، فإنّ جميعها تعني نفس الشيء، ونفس السر.

وإنني لأفضل الموت على أن أتخلى عن هذا الشيء الواحد، وحقًا، فلتنظروا حيثما يوجد الهلاك وسقوط الأوراق، ألا تضحي الحياة بنفسها - من أجل القوة. [...]

لم يصب الحقيقة ذاك الذي ألقى نحوها بعبارة "إرادة الوجود"، فلا وجود لمثل هذه الإرادة.

لأنّ ما لا وجود له لا يُمكنه أن يريد، ولكن ما هو موجود بالفعل، كيف يُمكنه أن يُريد أن يكون موجودًا.

فقط حيث توجد الحياة، توجد الإرادة أيضًا، ولكن ليس إرادة الحياة، بل -كما أعلمكم- إرادة القوة.

هذا ما علمتني إيّاه الحياة ذات يوم، ومن خلال ما تعلمته سأتمكن من فك ألغاز قلوبكم أيضًا أيها الحكماء. (المرجع نفسه، ص ١٤٨)

يبدو أنّ آخر أسرار الحياة تم كشفها هنا، فمن الواضح أنّ نيتشه أيضًا كان يميل لبعض الوقت إلى الاعتقاد بأنه يحمل بين يديه مفتاحًا جديدًا لتوضيح فلسفي شامل للوجود، لكنه تخلى عن توسيع هذه الفكرة بشكل منهجي، فلا يوجد استكمال لتأملاته حول "ميتافيزيقيا الإرادة"، وتعني محاولة خلق تفسيرات لنصوصه، إغفال الطابع التجريبي لهذه النصوص.

في الواقع، يوجد نهج لتطبيق ديناميكية إرادة القوة كمبدأ فعّال ليس فقط للحياة، ولكن للكائنات بشكل عام.

وبالرغم من ذلك، فإنّ الصيغة التي اختارها نيتشه في كتابه ما وراء الخير والشر تقلل من شأن هذا النهج وتحوله إلى فرضية.

فلنفترض أنه ما من شيء "معطى" حقيقي، سوى عالم الأهواء والرغبات الخاص بنا، وأنه لا يمكننا النزول أو الصعود إلى أي "واقع" آخر غير واقع غرائزنا فقط،

لأنّ التفكير ليس سوى سلوك هذه الغرائز إزاء بعضها بعضًا، ألا يكون من المسموح عندئذٍ، أن يُطرح السؤال، عمّا إذا لم يكُن هذا المعطى كافيًا أيضًا، لكي نفهم ما يسمى بالعالم الميكانيكي (أو المادي)؟

[...] إنّ السؤال المطروح في النهاية هو، هل نؤمن حقًا أنّ هذه الإرادة فاعلة؟ هل نؤمن بسببية الإرادة؟ وإذا ما فعلنا ذلك -وإيماننا بهذا هو في الأساس إيماننا بالسببية نفسها- فعلينا أن نحاول طرح سببية الإرادة، فرضًا بوصفها السببية الوحيدة. [...]

ولنفترض أخيرًا أنه يمكن تفسير حياتنا الغريزية بأسرها على أنها تطور وتشعب لشكل أساسي من أشكال الإرادة -أعني إرادة القوة، على حد وصفي أنا- فلنفترض أنه من الممكن إحالة جميع الوظائف الحيوية إلى إرادة القوة هذه، وإيجاد حل من خلال ذلك لمشكلتي الإنجاب والتغذية، فإنّ ذلك سيمنحنا الحق في أن نصف بوضوح كل قوة فاعلة، بأنها إرادة للقوة، وسيغدو العالم، عند النظر إليه من الداخل، "إرادة القوة" تحديدًا ولا شيء سواها. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ٥٤)

ظلت إرادة القوة واحدة من تجارب نيتشه الفكرية العديدة.

ولا يمكننا إنكار ارتباط مفهوم "إرادة القوة" بوصف زرادشت للإنسان الأعلى، بل وحتى بالنمط الزرادشتي نفسه، توضّح العلاقة بين التغلّب على الذات والنأي بالنفس ذلك.

ويقدّم زرادشت تاريخًا مُفصلًا لأصل "الحزن العظيم"، والتشاؤم، مستخدمًا مفهوم "إرادة القوة" ويحدد دور الإنسان الأعلى في ذلك التاريخ.

تتحرر الإرادة، ولكن ماذا يُسمى ذلك الذي يقيد المُحرّر نفسه بالسلاسل؟

"كان": هكذا يُسمي صرير أسنان الإرادة وبؤسها الحاد، عاجزة أمام كل ما حدث، هكذا تغدو الإرادة العين الأكثر شزرًا تجاه كل ما مضى.

[...].

وهكذا تحوّلت الإرادة المُحررة إلى مُسيئة، وأصبحت تسلط انتقامها على كل مَن

يستطيع أن يتألم، لأنه لا يستطيع العودة إلى الوراء.

هذا، وهذا وحده، هو عين الانتقام، نفور الإرادة من الزمن، وممّا فيه من "كان".

هناك حماقة كبرى تسكن في إرادتنا، ومن أجل لعن البشرية أجمع تعلمت هذه الحماقة العقل.

لقد كانت روح الانتقام أفضل شاغل لفكر البشر حتى الآن يا أصدقائي، وأينما كان هناك ألم ومعاناة، لا بد أن يكون هناك عقاب.

[...].

والآن ها هي السحب تتراكم فوق العقل، إلى أن ينتهي الجنون من إعلان تعاليمه، "كل شيء يمضي إلى الفناء، لذلك لا يستحق كل شيء سوى الفناء".

[...].

"ما من جريمة يمكن إبادتها، فكيف يمكن إبطالها من خلال العقاب" هذا هو الجانب الأبدي لعقاب "الوجود"، أن يكون الوجود هو أيضًا جريمة وذنبًا متكررين إلى الأبد.

"إلا إذا خلصت الإرادة نفسها بنفسها في النهاية، وغدت الإرادة "لا إرادة"، ولكنكم تعلمون خرافة الجنون هذه، يا إخواني. (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الخلاص، ص ١٧٩ وما يليها).

يجمع نيتشه بين مفهوم "إرادة القوة" ومفهوم تأملاته النفسية حول الأخلاق في مفهوم "الاستياء"، ينشأ الاستياء كنتيجة "لتلك الكائنات التي يُنكر عليها رد الفعل الحقيقي، والتي تعوض نفسها فقط من خلال انتقام وهمي لا يضر". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الخامس، ص ٢٧٠).

يصف نيتشه ذلك بأنه رد فعل المعرضين للأذى، والذي يؤدي في النهاية إلى إيذاء أنفسهم فقط بمواردهم المحدودة.

ومن خلال هذا المنظور العام الذي يتبناه زرادشت هنا، يظهر التشاؤم كاستياء عالمي، حيث تعمل "إرادة القوة" نفسها على تطويره في مواجهة الماضي، الذي

لا حول له ولا قوة على مواجهتها، "وهكذا تحولت الإرادة المحررة إلى مسيئة، وأصبحت تسلط انتقامها على كل مَن يستطيع أن يتألم، لأنه لا يستطيع العودة إلى الوراء".

كانت ديناميكية جميع الكائنات الحيّة، والتي ظهرت فيها "إرادة القوة" بكل وضوح، في البداية مجرد مُعاناة من الماضي السيئ غير القابل للتغيير، ثم تحوّلت إلى "الحزن العظيم" على الحياة نفسها.

إنّ الخلاص الذاتي الوحيد للإرادة -أي حل "الجنون"- يؤدي إلى العدم، "إلا إذا خلصت الإرادة نفسها بنفسها في النهاية، وغدت الإرادة "لا إرادة"، ولكنكم تعلمون خرافة الجنون هذه، يا إخوتي".

ومع ذلك فإنّ الغرض من هذا التفسير الشامل لمفهوم "الحزن العظيم" ليس تقديم تفسير فلسفي للأحداث، بل إظهار الخيار البديل للعلاج، يوضّح هذا النهج مدى قدرة الإنسان الأعلى على حل هذه العقدة.

لقد أبعدتكم عن هذه الخرافات، عندما علمتكم: "إن الإرادة خالقة".

كل ما "كان ذلك" هو شظية، ولغز، وصدفة فظيعة، إلى أن تقول الإرادة الخالقة: "ولكنني هكذا أردت ذلك".

وإلى أن تضيف الإرادة الخالقة: "ولكنني هكذا أريد ذلك! وهكذا سأريده".

ولكن هل تحدّثت الإرادة هكذا؟ ومتى حدث ذلك؟ هل تحرّرت الإرادة من جنونها؟

هل تحولت الإرادة نفسها بالفعل إلى مُخلصة ومرسلة للفرحة؟ هل نسيت روح الانتقام وكل صرير الأسنان؟

ومن الذي علمها التصالح مع الزمن، وما هو أسمى من كل مصالحة؟

يجب أن ترغب الإرادة، التي هي إرادة القوة، فيما هو أسمى من كل مصالحة، ولكن كيف سيحدث لها ذلك؟ ومن الذي علمها أيضًا الرغبة في العودة؟ (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الخلاص، ص ١٨١).

لا يكمن "خلاص" الإرادة في "التصالح"، بل من الممكن أن يكمن في تغلب أولئك الذين يستطيعون السيطرة على أنفسهم من خلال النأي بأنفسهم، على الذات، وبالتالي يجعلون أنفسهم ضروريين دائمًا، إنهم يستحوذون على الماضي، "ولكنني هكذا أردت ذلك"، ومن خلال جعل أنفسهم ضروريين، يصبح ماضيهم لا غنى عنه.

لم تظهر إمكانية "التصالح مع الزمن" كاملة بعد من خلال النهج الذي قدمه زرادشت، تم التلميح فقط إلى دور الإنسان الأعلى، ويبقى في النهاية السؤال المطروح حول كيفية حل المشكلة التي تثيرها هيكلة الزمن العابر بدون إجابة.

وعند هذا الحد توقف زرادشت عن الكلام، وبدا كمن تملكه ذعر شديد، ظل يُحدّق في تلاميذه بعينين مذعورتين، وظلت عينيه تنفذ مثل السهم إلى أفكارهم ودوافعهم الخفية. (المرجع نفسه، ص ١٨١)

يعكس ذعر زرادشت الخوف من الإفصاح عن الكثير، يمكن للتلاميذ التخمين بأنّ هذه الأسئلة ستؤدي في النهاية إلى فكرة "العودة الأبدية".

اعتبر نيتشه التّحدّث عن هذه الفكرة بمثابة مخاطرة حتى الكتاب الثالث، ومن الواضح، أن هذه الفكرة كانت بالنسبة لنيتشه نفسه أكثر تجاربه الفكرية إثارة للصدمة.

***

العودة الأبديّة:

ذلك لأنّ حيوانيك يعرفان جيدًا، يا زرادشت، من أنت وماذا ينبغي أن تصير؟ إنك معلم العودة الأبدية، هذا هو قدرك الآن! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل المتعافي، ص ٢٧٥).

يتعدى ما يُسمى بمذهب "العودة الأبدية" مجرد كونه إحدى تصريحات زرادشت العديدة، حيث يعد أمرًا مركزيًا بالنسبة للكتاب وللنمط الزرادشتي، ولكن ليس مركزيًا بمعنى النظام الفلسفي، دون نيتشه ملاحظة حول ذلك في عام ١٨٨٤: "لقد تجاوزت جميع الأنظمة الفلسفية [...]". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ١٥٩). غير أنّ غالبية الصور الذهنية

المرسومة في زرادشت تُشير إلى هذا المركز من خلال المضمون والإشارات التلميحية.

وربما تكون وجهة النظر المعاكسة أكثر ملائمة، والتي تعتبر فكرة "العودة الأبدية" هي نواة الكتاب، يبدأ نيتشه تعليقه على زرادشت في كتاب "هذا هو الإنسان" برأي مماثل.

لقد حان الوقت لأروي لكم تاريخ كتابي "هكذا تكلم زرادشت"، إنّ الفكرة الأساسية لهذا العمل -أي فكرة "العودة الأبدية"- هي أعظم صيغة للتأكيد يمكن للإنسان تحقيقها على الإطلاق، ويعود تاريخها إلى أغسطس ١٨٨١، لقد دونت ملاحظة سريعة عنها على ورقة مع حاشية تقول: "٦٠٠٠ قدم وراء الإنسان والزمن"، في ذلك اليوم كنت أسير عبر الغابة بجوار بحيرة سيلفابلانا، وتوقفت عند كتلة صخرية ضخمة هرمية الشكل ليست بعيدة عن سورلي، ثم جاءتني هذه الفكرة [...]. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد السادس، ص ٣٣٥).

تعد هذه الملاحظة محاولة لتوضيح كيفية التعامل مع تلك الفكرة الجديدة.

العودة الأبدية.

مسودة.

١. احتواء الأخطاء الجوهرية.

٢. احتواء العواطف.

٣. احتواء المعرفة والمعرفة المُتخلي عنها. (شغف المعرفة).

٤. الأبرياء، الفرد كتجربة، تيسير الحياة، ذل وإضعاف الانتقال.

٥. الوزن الأثقل الجديد، العودة الأبدية، الأهمية اللانهائية لمعرفتنا، وأخطائنا، وعاداتنا، وأسلوب حياتنا بالنسبة لكل ما هو قادم، ماذا سنفعل في بقية حياتنا؟ نحن الذين قضينا معظمها في جهل مقبع؟ نحن نُعلم العقيدة، لأنها أقوى وسيلة لدمجها في أنفسنا، نوع من النعيم، أن نكون معلمين لأعظم العقائد.

أوائل أغسطس ١٨٨١ في سيلس ماريا، على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم فوق البحر وأعلى بكثير من كل الأمور البشرية. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد التاسع، ص ٤٩٤).

من الواضح، أنّ نيتشه وجد نفسه مغمورًا في هذا "الوزن الجديد"، فقد وصف الحياة قبل هذه الفكرة بأنها "جهل مقبع".

يقدّم نيتشه ملاحظة طويل حول النقطة الرابعة من المسودة، حيث يلاحظ في البداية ردود فعل لا مبالية تجاه كل ما مضى كنتيجة لذلك الجهل.

ما كان في السابق الأكثر إزعاجًا الآن له تأثير مختلف تمامًا، ويُنظر إليه فقط كلعبة ويتم التغاضي عنه [...]، نحن نقف مثل الأطفال تجاه كل ما كان يمثل جدية الوجود في السابق. (المرجع نفسه)

ظلّ نيتشه جادًا فيما يتعلق بالمعرفة، ومكانة العارف في الوجود.

يجب أن يُفهم تطلعنا للجدية على أنّ كل شيء في حالة تطور، نحن ننكر الفردية، ونحاول أن ننظر إلى العالم من خلال أعين متعددة قدر الإمكان، نعيش بالاندفاعات والانشغالات لنصبح لأنفسنا أعينًا مؤقتة، ثم نترك أنفسنا للحياة مؤقتًا لنرتاح بعدها لفترة معينة، تعد الدوافع أساسًا لكل معرفة، ولكن يجب علينا أن نعرف متى تصبح عدوة للمعرفة، ببساطة، ننتظر لنرى إلى أي مدى يمكن دمج المعرفة والحقيقة وكيف يمكن للإنسان أن يتحول في النهاية إلى كونه يعيش فقط ليعرف. (المرجع نفسه، ص ٤٩٤)

يظهر بوضوح شغف نيتشه بالمعرفة، والذي كان أيضًا مصدرًا لمعاناته، في هذه السطور، ويطرح السؤال حول صحة الحقيقة نفسه، ومن غير الواضح كيف ستؤثر الرؤى الجديدة على الحقيقة، يتضح عمق الرؤية الجديدة من خلال الاقتباس التالي:

تظهر الآن المعرفة الأصعب والتي تجعل جميع أنواع الحياة مليئة بالتدبر والتفكير، علينا أن نزن الماضي، ماضينا وماضي البشرية جمعاء، وأن نتغلب عليه أيضًا - لا! سوف يكرر هذا الجزء من تاريخ البشرية نفسه إلى الأبد، فيجب علينا تركه خارج المعادلة، لأنه ليس لدينا أي تأثير عليه، على الرغم من أنه يثقل تعاطفنا

ويقلبنا ضد الحياة، ولكي لا يغمرنا هذا، يجب ألا يكون تعاطفنا كبيرًا، لا بد أن اللامبالاة كان لها تأثير عميق علينا، فلا ينبغي أن نقلق بشأن بؤس البشرية في المستقبل أيضًا، ولكن يبقى السؤال المطروح هو هل ما زلنا نرغب في العيش وكيف يمكننا ذلك؟ (المرجع نفسه، ص ٤٩٥)

يتحول الفكر إلى سؤال مصيري ثم يعود مرة أخرى ليصبح سؤالًا شخصيًا عن الذات، إن محاولة أخذ فكرة العودة الأبدية على محمل الجد تقلبنا "ضد الحياة"، وتتعمق مُعاناة الوجود، ويبقى السؤال المطروح حول ما إذا كان لا يزال من الممكن العيش في مواجهة هذا المنظور وكيف يمكن ذلك غير مجاب، وسيتضح أن اللامبالاة غير كافية هنا.

يتطرق أول بيان فكري لنيتشه في كتاب العلم المرح إلى صياغة فكرة "الأثقل وزنًا" مرة أخرى.

على الرغم من كل شيء، يجعل نيتشه الفكرة بسيطة للغاية هناك، فلا تُعرض فكرة العودة الأبدية كعقيدة جديدة، بل تُعرض كسؤال وافتراض.

أثقل وزنًا:

ماذا ستفعل إذا تسلل شيطان إليك يومًا ما أو ليلة ما إلى عزلتك الأكثر انزواءً وقال لك:

"سيتعين عليك أن تعيش هذه الحياة مرة أخرى ومرات لا حصر لها، كما تعيشها الآن، ومثلما عشتها من قبل، ولن يكون هناك شيء جديد في ذلك، سوى أن كل ألم وكل متعة وكل فكرة وكل تأوه وكل ما هو متناهٍ في الصغر والكبر في حياتك يجب أن يعود إليك، كل شي بنفس النظام والتسلسل -بما في ذلك هذا العنكبوت، وضوء القمر هذا بين أشجار الغابة، وهذه اللحظة وأنا، إن ساعة الوجود الرملية الأبدية تنقلب مرارًا وتكرارًا- وأنت معها، كأنك ذرة غبار".

ألن تلقي بنفسك على الأرض وتصر على أسنانك وتلعن هذا الشيطان الذي كلمك بهذا الشكل؟ أم ستعيش لحظة رائعة يمكنك فيها إجابته: "أنت بالتأكيد إله، فلم أسمع شيئًا بتلك الإلهية قط!" إذا سيطرت عليك هذه الفكرة فستحولك إلى شخص آخر، ولربما ستسحقك؛ والسؤال المطروح بخصوص الجميع وكل شيء: "هل تريد

هذا مرة أخرى، ومرات لا حصر لها" سيهبط بثقله على تصرفاتك كأثقل وزنًا. كم سينبغي عليك أن تصبح محسنًا تجاه نفسك وتجاه الحياة؟ حتى لا ترغب في شيء غير هذا الإثبات الأبدي، ولربّما يكون عقابًا أبديًا؟ (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٥٧٠).

"هذه الحياة - حياتك الأبدية" (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد التاسع، ص ٥١٣) لم تطرح أية عقيدة أو تعاليم حول تناسخ الأرواح، ولم تستحضر أية ذاكرة محتملة لحياة سابقة، ولم يتم التركيز على أي من التكهنات التاريخية الفلسفية.

تغدو الحياة هذا الوزن الأثقل، في ظل هذا الافتراض المحتمل، بأنّ الحياة هي حياة مادية راديكالية، وستظل هكذا دائمًا، وكانت هكذا دائمًا من قبل.

يرسم "الرجل المجنون" صورة لانعدام الوزن بسبب فقدان توجه الوجود والتوجه العملي بعد "موت الإله".

ماذا فعلنا بإبعادنا هذه الأرض عن شمسها؟ إلى أين تتحرك الآن؟ إلى أين تقودنا حركتها؟ أبعيدًا عن كل الشموس؟ ألسنا نسقط باستمرار؟ إلى الخلف، وإلى الجانبين، وإلى الأمام، ألسنا نسقط في كل الاتجاهات؟ هل ما زال هناك صعود وهبوط؟ ألسنا نتجول في الفراغ اللامتناهي؟ (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث، ص ٤٨١).

لا يستطيع "الوزن الأثقل" استبدال مركز الجاذبية المفقود بمركز جديد يقع خارج الوجود، فلا تزال إمكانية وجود منظور خارق للوجود غير متاحة، ولا يمكن تجاوز الوجود واللحظة، بل على العكس من ذلك يتم تعميقهما وتخليدهما.

ومن الممكن أن يغدو هذا المنظور الجديد الجاذبية والتوجيه، أو أن يغدو الوزن الأثقل نفسه، فلا يعتمد التوجه على الإرشادات الخارجية، أي أنه ليس تابعًا.

وبدلًا من ذلك، يصبح المنظور فاعلًا من خلال تفاقم مشكلة "مدى تحمّل المرء للحظاته الخاصة"، في مواجهة الاشمئزاز والضجر من حياتك ووجودها بشكل عام، تغدو فكرة "هذه الحياة - هي حياتك الأبدية!" لا تطاق.

شعر نيتشه لفسه بأنه لن يقدر على مواجهة فكرته "لا أريد أن أعيش مرة أخرى [...]" (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ١٣٧)، ويلاحظ الخطر النابع من هذه الفكرة.

دعونا نفحص كيف أثرت علينا فكرة تكرار شيء ما حتى الآن (السنة، على سبيل المثال، أو الأمراض الدورية، الاستيقاظ والنوم.. إلخ)، فإذا كان تكرار الدائرة مجرد احتمال أو إمكانية، فإن قدرتنا على التفكير يمكنها زعزعة ثباتنا وإعادة تشكيلنا كليًا، وليس فقط تغيير مشاعرنا أو طموحاتنا، كيف أثرت فينا هذه اللعنة الأبدية. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد التاسع، ص ٥٢٣).

تردد نيتشه كثيرًا قبل جعل زرادشت يعلن عن هذه الفكرة الغثيرة للجدل، والتي أخفاها لفترة طويلة، فقام بعرض أفكاره المتعلقة بالإنسان الأعلى في فصل "الخلاص"، قبل التعبير عن فكرة "العودة الأبدية".

بعد هذه النظرة البشعة إلى الإنسان الأعلى، أصبحت تعاليم العودة الأبدية مقبولة الآن. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد العاشر، ص ٤٨٢).

يتحدث زرادشت في شكل الغز فقط إلى مجموعة مختارة من الأشخاص، الذين يثق أنهم قادرون على التعامل مع هذا التحدي بسبب مهنتهم.

إليكم أيها الباحثون والمستكشفون الجريئون، وكل مَن أبحر بأشرعة مخادعة في بحار الأهوال - [...] لكم وحدكم سأروي اللغز الذي رأيته - رؤيا الأكثر وحدة-

[...] تخطو قدمي بصمت فوق الصرير الساخر للحصى، ضارية بعنف على الصخر الذي يدعوها للإنزلاق وعدم الثبات فوقه، هكذا كنت أجبر قدمي على المضي صعودًا.

صعودًا: في تحدٍ للروح التي كانت تجذبها إلى الأسفل، كان يجذبها روح الثقل نحو القاع، شيطاني وعدوي اللدود.

صعودًا: بالرغم من ذاك الذي كان جاثمًا عليّ، نصف قزم، ونصف خلد، مشلول، ومُشل، اخترق رصاص الأفكار أذنيّ، وانسابت قطرات الأفكار الرصاصية إلى داخل

عقلي.

[...]

يا زرادشت، يا حجر الحكمة، أيها الحجر المقذوف إلى الأعلى، يا مدمر النجوم، لقد قذفت بنفسك عاليًا، لكن كل حجر قُذف لا بد له من السقوط في النهاية.

[...]

هناك شيء بداخلي أسميه الشجاعة، والذي دائمًا ما بدد أي لحظة استياء لي، هذه الشجاعة هي التي دفعتني للوقوف هادئًا وللتكلم هكذا: "أيها القزم! إمّا أنت أو أنا".

[...]

لكن الشجاعة هي السلاح الأشد فتكًا، الشجاعة التي تهاجم، إنها تقتل الموت أيضًا، وتتكلم هكذا: "هل كانت هذه هي الحياة؟ فلنعد الكرة إذًا".

لكن في مثل هذه الأقول يوجد الكثير من رنين أنغام الطبول، ومَن له أذنان فليسمع! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الرؤيا واللغز، ص ١٩٧ وما يليها).

أصبح صعود زرادشت انتصارًا على "روح الثقل"، ويقف زرادشت في مواجهة ديناميكية التغلب على الذات وتطوير الذات - "لكن كل حجر قُذف لا بد له من السقوط في النهاية"، يشكل "التغلب على الاشمئزاز العظيم" تفوق زرادشت على "روح الثقل"، يملك زرادشت موقفًا إيجابيًا يستطيع من خلاله تمنى تكرار هذه الحياة.

يظهر هذا النص مدى عمق وفعالية فكرة العودة الأبدية.

تحدثت قائلًا: صه! أيها القزم! إما أنا أو أنت، لكنني أنا الأقوى بيننا، إنك لا تعرف شيئًا عن أفكاري العميقة، ولا يمكنك تحملها.

ثم حدث شيء جعلني أكثر خفة، ذلك أن القزم قفز من فوق كتفي ليجلس على حجر أمامي، ذلك الفضولي، وكانت هناك بوابة في المكان الذي توقفنا فيه.

انظر إلى هذه البوابة، أيها القزم، إن لها وجهين، دربان يلتقيان هنا، ولم يستطع أحد أن يسلكهما حتى النهاية.

يمتد هذا الدرب الطويل، الذي يمضى إلى الوراء، إلى الأبدية، والذي يمضي إلى الأمام يمتد إلى أبدية أخرى.

يتعارض هذان الدربان ويصطدمان برأس بعضهما بعضًا، وهنا، عند هذه البوابة، يجتمعان معًا، اسم هذه البوابة مكتوب أعلاها: "لحظة".

هل تعتقد أيها القزم أنه إذا سار أحد ما على أحد هذين الدربين، دومًا إلى الأمام، ودومًا أبعد، أنهما سيظلان يتعارضان إلى الأبد؟

تمتم القزم بازدراء، كل ما هو مستقيم كاذب، وكل حقيقة معوجة، والزمن نفسه عبارة عن دائرة مغلقة.

قلت بغضب: اسمع يا روح الثقل، لا تستسهل الأمر إلى هذا الحد، وإلا تركتك قابعًا حيث تقبع الآن، أيها المشلول، فأنا مَن حملتك إلى هذا العلو.

قلتُ مواصلًا: انظر إلى هذه اللحظة، من هذه البوابة "اللحظة" يمتد درب طويل أبدي إلى الوراء، هناك أبدية تمتد خلفنا.

ألا يجب على كل ما يستطيع المشي أن يكون قد سار في هذا الدرب من قبل؟ ألا يجب أن يكون كل ما يمكن أن يحدث قد حدث بالفعل؟ قد حدث وقد مضى ذات مرة؟

وإذا ما سبق لكل شيء إن كان هنا ذات مرة، فما رأيك في هذه اللحظة أيها القزم؟ ألا يجب على هذه البوابة أن تكون قد وجدت من قبل ذات مرة هي الأخرى؟

أليست كل الأشياء تبعًا لذلك مرتبطة ارتباطًا وثيقًا ببعضها بعضًا، بما يجعل هذه اللحظة تجذب إليها كل الأشياء المقبلة؟ وبالتالي نفسها أيضًا؟

لا بد أن يمر كل ما يستطيع المشي من هذا الدرب الطويل مرة أخرى.

وهذا العنكبوت البطيء القابع تحت ضوء القمر، وهذا القمر أيضًا، وأنا وأنت

الجالسين عند البوابة، نتهامس معًا عن الأشياء الأبدية، ألا ينبغي أن نكون قد وجدنا جميعًا هنا من قبل؟

ونعود ونركض في ذلك الدرب الآخر، في هذا الدرب الطويل المفزع، ألا ينبغي علينا أن نظل نعود إلى الأبد؟

هكذا تكلمت بصوت هادئ وخفيض، لأنني كنت خائفًا من أفكاري ودوافعي الخفية، وعندها سمعت صوت كلب يعوي بالقرب مني. [...] (المرجع نفسه، ص ١٩٩ وما يليها)

كما هو الحال في العلم المرح، تعد الأسئلة حاسمة، ويبقى من غير الواضح ما إذا كانت الدائرة ستنغلق وكيف ستنغلق: "هل تعتقد [...] أنهما سيظلان متعارضان إلى الأبد؟"

النظر من الخارج لدورة التاريخ، "عجلة الوجود"، والنظرة الاحتقارية للأشياء هي عمل القزم، فهو لا يعرف منظور اللحظة، بل يعرف فقط منظور الرتابة الأبدية للدورة، يمثل زرادشت منظورًا مختلفًا، فمن وجهة نظره يتعارض الدربان في الوقت الحالي فقط، يتم تحويل وجهة النظر إلى الزمن، وتعد اللحظة هي نقطة الانطلاق، ويحدث عندها انعكاس الاتجاه بين الدربين، اللحظة هي أيضًا نقطة التحول، يكمن الماضي في الاتجاه الأبدي الخلفي، والمستقبل في الاتجاه الأمامي، لا يعرف القزم الاتجاهات، ولا الفرق بين التوقع والذكرى، إنه ينظر إلى الحياة من الخارج فقط ولا يشارك فيها أبدًا.

"الزمن نفسه عبارة عن دائرة مغلقة"، هذا المنظور غير كافٍ، فهو يغفل منظور اللحظة، ومع ذلك، يطرح زرادشت سؤالًا مهمًا حول عودة الشيء نفسه، ألا يجب على كل ما يستطيع المشي أن يكون قد سار في هذا الدرب من قبل؟".

يلمح سؤال زرادشت إلى حُجة، فإذا كانت المجموعة المتاحة من الاحتمالات محدودة وإذا كانت اللحظة تجلب معها أشياء جديدة، وترتبط بمجموعات جديدة، فإن كل شيء سيعود مرة أخرى.

حاول نيتشه في وقت لاحق تجميع كل حجج العودة الأبدية، مزج نهج من عام ١٨٨٥ بين جوانب هذه الفكرة وروح التفكير الصادقة لنيتشه، التي ترفض كل

التكهنات حول اللانهاية.

[...] ولكن ما هي العبارة التي ستعبر بشكل أفضل عن التحول النهائي، عن الهيمنة المتحققة الآن للعقل للعلمي على العقل الديني الذي يتخيل الآلهة؟ ألا ينبغي القول، لا يمكن تخيل العالم لا متناهيًا، باعتباره قوة غير محدودة، لأنّ تصوره على ذلك النحو غير ممكن -إننا نحرم على أنفسنا فكرة القوة اللامتناهية لأنها تتعارض مع مفهوم القوة- لذلك فالقدرة على التجدد إلى الأبدية منعدمة في العالم. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الحادي عشر، ص ٥٥٧).

جمع نيتشه المزيد من الأفكار في دفاتره خلال السنوات التي تلت "زرادشت"، غالبًا ما تتضمن هذه الدفاترة الأفكار والصيغ التي وجدها أثناء قراءاته الفلسفية أو العلمية الطبيعية، بما في ذلك التكهنات الكونية المُثيرة للاهتمام والمناقشات حول مفهوم القوة، إن جهوده لإثبات فكرة العودة الأبدية واضحة للغاية.

ينصب تركيز زرادشت على عواقب الفكرة، وليس على تبريرها، يجذب عواء كلب انتباه زرادشت إلى مشهد مغاير.

كان هناك رجل ممدد هنا، وكان الكلب بجواره، قافزًا، منتصبًا، ينبح مستعطفًا، ها هو الآن يراني قادمًا، ثم راح يعوي مجددًا، صارخًا الآن: هل سمعت كلبًا يصرخ طلبًا للمساعدة هكذا من قبل؟

والحقيقة أنّ ما رأيته هنا، لم يسبق لي رؤيته من قبل، رأيت راعيًا شابًا يتلوي، مختنقًا مرتعدًا، متقلص الوجه، ويتدلى من فمه ثعبان أسود ثقيل.

هل سبق أن رأيت مثل هذا الاشمئزاز والذعر الشديدين على وجه آدمي؟ لا بد أنه كان نائمًا، حينما تسلل الثعبان إلى حلقه، وقام بعضه بكل ما أوتي من قوة، أمسكت يدي الثعبان وسبحت ولكن عبثًا، لم أستطع سحب الثعبان من فمه، وعندها دنت مني صرخة: عض! عض!

"اخلع الرأس! عض!" هكذا كان الصراخ يخرج من داخلي، صراخ ذعري وحقدي واشمئزازي وشفقتي، وكل ما في داخلي من خير وشر.كان يصرخ بصوت واحد من داخلي.

أيها الجريئون المجتمعون حولي، أيها الباحثون والمستكشفون وكل مَن أبحر بأشرعة مخادعة في بحار الأهوال! يا عشاق الألغاز! لتحلوا لي إذا هذا اللغز الذي رأيته فيما مضى، فلتفسروا لي إذا رؤية ذلك الأكثر وحدة.

لقد كانت رؤيا ونبوءة، ما الذي رأيته آنذاك في صورة موعظة؟ ومَن هو ذاك الذي ينبغي عليه أن يأتي حتمًا في يوم ما؟

مَن هو ذلك الراعي الذي تسللت الأفعى إلى فمه؟ مَن هو الإنسان الذي تتسلل إليه أثقل الأشياء وأكثرها سوادًا.

لكن الراعي عض كما نصحته، عض بكل ما أوتي من قوة، ومن ثم قذف رأس الثعبان بعيدًا وقفز ناهضًا.

لم يعد راعيًا، لم يعد إنسانًا، بل كائنًا متحولًا، محاطًا بهالة من النور، ضاحكًا، لم يضحك أحد على وجه الأرض أبدًا مثلما كان يضحك.

يا إخواني، لقد سمعت ضحكة ليست بضحكة بشرية، والآن ينهش أحشائي عطش وشوق لن ينطفئ أبدًا.

شوقي إلى هذه الضحكة ينهشني: آه، كيف لي أن أتحمل العيش بعدها، وكيف لي أن أتحمل الموت الآن! (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الرؤيا واللغز، ص ٢٠١).

***

الفصل الخامس
كتب زرادشت الأربعة

التأليف:

إنّ اللافت للنظر في كتاب زرادشت هو انفتاح تركيبته، مما سمح لنيشته بإدراج المزيد من الصور والنصوص الفكرية باستمرار، أعاد نيتشه تجميع مسوداته الأولية كثيرًا قبل كتابة النسخة النهائية، لا يوجد تسلسل منطقي واضح، بل يُنظم النص وفقًا لتفضيلات نيتشه وذوقه في التركيب المناسب والتسلسل الملائم.

كما لا يوجد تاريخ فعلي لجولات زرادشت، ولا خط سير واضح، يتجول زرادشت، مثل نيتشه نفسه يكن في بعض الأحيان في بيئة ما ثم لاحقًا يغدو في بيئة أخرى، يعود أو يغادر، تتغيّر البيئات بتغيّر الصور الفكرية، وتعد هذه البيئات أيضًا سمات مميزة تربط بين الخطابات الفردية وصور زرادشت.

إنّ الشخصيات البارزة التي تقابل زرادشت أثناء جولاته لها وظيفة مماثلة، استخدم نيتشه أسمائهم أو ألقابهم في السياقات المختلفة للإشارة إلى سياق آخر، يكتب نيتشه من خلال الرموز، يرى مونتيناري أنّ هذه سمة أساسية من سمات أعماله اللاحقة.

استخدم نيتشه، خاصة في المرحلة المتأخرة من حياته الإبداعية، مصطلحات تبدو فارغة ومجوفة من الداخل، وتكاد لا تعني شيئًا (على سبيل المثال، مصطلح "الإنسان الأعلى"): لذلك يجب علينا تذكر جميع المعاني التي ملأ أعماله بها، هذه المصطلحات عبارة عن، إذا جاز التعبير، رموز، ينبغي أن تجعلنا نفكر دائمًا فيما حدث قبلها [...]. (انظر إلى ملاحظات مازينو مونتيناري، ص ٧٢).

وبالإضافة إلى استخدام الرموز بكثرة، يكثر أيضًا في زرادشت استخدام عبارات التعليق على الذات، فعلى سبيل المثال، لا الحصر، عبارة "الشعراء يكذبون كثيرًا"، وذلك ما ينشئ شبكة من التعليقات والارتباطات.

وبالرغم من ذلك، فإنّ صور وخطب زرادشت الفكرية ليست موزعة بالتساوي في المحتوى، حيث ترتكز وتلتف حول نقاط محورية معينة.

ومثلما لا يمكن وصف تجوال زرادشت من خلال الإشارة إلى طريق محدد، فإن الصور الفكرية لا تلتزم أيضًا بمسار فكري متجانس، ما يمكن وصفه فقط هو النقاط المحورية المختلفة وتحولاتها، تعد مسودة المقدمة للمجلد الثاني من كتاب ما وراء الخير والشر محاولة لفهم زرادشت، ولكن ليس كتعليق على خطابات زرادشت، بل كفهرس للنقاط المحورية.

وبما أنّ هذا الكتاب "مقدمة لفلسفة المستقبل" لا يقدم ولا ينبغي أن يقدم تعليقًا على خطابات زرادشت، فربما يكون على الأقل نوعًا من الفهارس الأولية التي ستضم أهم الابتكارات المفاهيمية والقيمية لذلك الكتاب، أحداث بدون أبطال أو أمثلة أو مواعظ. (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثاني عشر، ص ٢٣٤).

إنّ شرح محتوي النقاط المحورية المهمة، كما حاولنا في الفصول السابقة، هو إحدى الطرق للمساعدة في فهم زرادشت، وبالإضافة إلى ذلك، ينبغي إعطاء لمحة عامة عن ترتيب الصور الفكرية والخطب لوصف التحول في هذه النقاط المحورية.

***

ذهاب وإياب.. الأجزاء الأربعة:

يبدأ الجزء الأول بنزول زرادشت من الجبال، وينتهي بهجر تلاميذه والعودة لعزلته، ومن ثم يبدأ الجزء الثاني بشكل مماثل، حيث يتحرّر زرادشت مجددًا من عزلته، ولكن في نهاية الجزء الثاني يترك جميع مرافقيه -أصدقاؤه- وراءه ويعود إلى عزلته، وفي طريق عودته لهناك، يعبر سلسلة جبلية ويصل إلى الشاطئ الآخر للجزيرة، ومن هنا يبدأ الجزء الثالث، ويعود زرادشت مرة أخرى لعزلته في منتصف هذا الجزء، ومنذ ذلك الوقت أصبح زرادشت لا يتحدّث سوى مع نفسه وحيواناته والحياة، ولكن في بداية الجزء الرابع، يترك زرادشت عزلته مجددًا ولكن هذه المرة لم يقابل سوى القليل من الشخصيات البارزة، فيقوم بدعوتهم جميعًا إلى حفل مسائي في كهفه، وفي الصباح التالي، يترك زرادشت الكهف والضيوف وراءه ويرحل، وهكذا ينتهي الجزء الرابع.

يُقسم النأي عن البشر كتب زرادشت الأربعة، "إنني أرسم حولي دوائر وحدودًا

مقدمة، ولا يوجد إلا القليلون جدًا الذين يمكن لهم أن يرقوا إليّ". (انظر إلى كتاب هكذا تكلم زرادشت، فصل عن الألواح القديمة والجديدة، ص ٢٦٠). هكذا عبر زرادشت عن الأمر، واصفًا بتلك الجملة الاتجاه العام للكتاب، تعد أفكار نيتشه تجارب منفردة من حيث راديكاليتها، فهي أفكار شخص وحيد، دون نيتشه في عام ١٨٨٩: "أنا العزلة ولكن في هيئة بشرية". (انظر إلى كتاب الأعمال الكاملة: طبعة الدراسة النقدية، المجلد الثالث عشر، ص ٦٤١).

***

مُقدّمة زرادشت:

يعد هذا الفصل مقدمة شاملة لنقاط البداية، يُمثل زرادشت مُحاولة لموقف فردي بعد "موت الإله" وفشل جميع الأنظمة الفلسفية، يوضّح كل من قرار الهبوط من على الجبل (الفقرة الأولى) والمُحادثة مع الناسك (الفقرة الثانية) ذلك.

ويلي ذلك مقدمة موضوعية على شكل ثلاثة فقرات من الخطب، ينصب تركيز هذه الخطب على المقارنة بين الإنسان الأعلى والإنسان الأخير.

يوضح فشل الخطبة أمام الجمهور وقرار زرادشت بالبحث عن أصدقاء، أنّ الكتاب ليس كتابًا تعليميًا لعقيدة جديدة، بل هو دعوة للاستقلال، تُقرأ الفصول كتعليق على العنوان الفرعي "كتاب للجميع وليس لأحد"، وتعطي تلميحات حول كيفية توجيه الكتاب للقُرّاء.

***

---

(1) ثيوديسيا: تعرف بنظرية العدالة الإلهية، هي فرع محدد من الثيولوجيا والفلسفة يهتم بحل معضلة وجود الشر.

(2) التشاؤم اليوناني: هو مصطلح يُشير إلى موقف فلسفي أو وجهة نظر عالمية مبنية على المفكرين اليونانيين القدماء ووجهات نظرهم المتشائمة، ويشير إلى فكرة أنّ الحياة بطبيعتها مليئة بالمعاناة وعدم اليقين والمأساة، وأنّ سعي الإنسان لتحقيق السعادة والوفاء محكوم عليه في النهاية بالفشل.

(3) ٣/ الكلانية: هي الفكرة الفلسفية القائلة بأن كل الأنظمة الطبيعية وسماتها، يجب أن ينظر إليها على أنها متكاملة، وليس على أنها مجموعة من الأجزاء.

(4) ديونيسوس ديثيرامبن: هي سلسلة قصائد لفريدريش نيتشه، وهي آخر عمل له الذي كتبه للنشر، تم إكمال هذه المجموعة في عام 1889 ولنشرت في عام 1891 كجزء من المرفق الرابع لشعره الفلسفي "هكذا تكلم زرادشت".